أَلمَرْأَة

بين الماضي والحاضر والمُستقّبل

أَلمَرْأَة

بين الماضي والحاضر والمُستقّبل

تأليف

مُحَمَّدُ حُسِين الأَنْصاري

منشورات

مؤسسة الشيخ الانصاري

الاهداء :

الى مَن علّمني أن أحترمَ أمّي

اليكما الاهداء معاً

صغيركما (حسين)

(١٤٣٩-٢٠١٧)

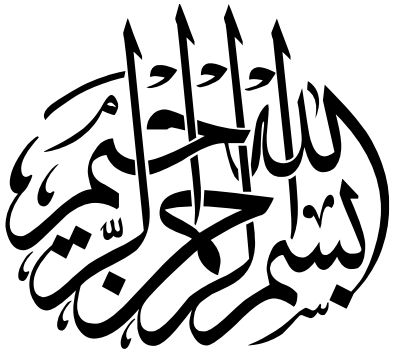
بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد ، وتقديم

"Sydney Morning Herald"

ترجمة ما نشرته جريدة "سيدني مورنينك هيرالد"[1](أشهر جريدة في استراليا) في عددها (٥٤٤٨٨)

الصادرة يوم السبت ٢٥/ ٠٥/ ٢٠١٢ :

كلُّ وليمةٍ ولها عطاء : وجبة غداء مع محمد حسين الأنصاري .

بقلم: ديبرا جوبسون "Debra Jopson" (من اشهر صحفيي وكتّاب أستراليا : لها كتب عدة ، ككتاب "ريدفرن بيبرز" " أوراق ردفن " ، الذي كشف مخططات الحكومة يومها ، لمدينة سيدني ، وأجبرها على توقيف المشروع ، وكتاب "بلاك لاند / وايت شوز" " أرضٌ سوداء / أحذيةٌ بيضاء " ، الذي كان له التأثير الكبير في تغيير سياسة الحكومة اتجاه السكان الاصليين ، ولها تحقيقات أخر، كان لها الوقع الكبير في أستراليا ؛ وهي حاصلة على جوائز عدّة).

Read more:
http://www.smh.com.au/national/every-banquet-a-bonus-lunch-with-mohammad-hussein-alansari-20120525-1zace.html#ixzz1wbWF2Jve

عندما يريد الشخص أن يقابل "آية الله" ، الذي يصنّف كأهم شخصية دينية شيعية في أستراليا ، للغداء فيجب أن يكون هناك بروتوكول معين.

١ــ نقلنا ماجاء في الجريدة حرفياً بدون أي إضافة ، او تعديل منا ، سوى ما رأينا من الضروري بيانه ، وشرحه ، لأنّ العبارة جاءت مكبوسة جداً ، وقد لا يفهم القارئ العربي المراد ، فشرحنا ذلك في الهامش.

"إنه مثل اللقاء مع الكاردينال"، قال ابنه محمد باسم الأنصاري ، رئيس مكتبه ، ونحن نجلس على أثاثٍ غير متناسق في شرفة صغيرة ، لبيتٍ للقهوة ، يطلّ على مركز مدينة سيدني التجاري ، وأمامنا الخبز المحمص ، والشاي والقهوة ، مع الناشط لمكافحة الإرهاب [الدكتور]"فؤاد نجم" .

هناك تقويمان ، تقويم آية الله الشيخ محمد حسين الأنصاري الإسلامي ، وتقويم هيرالد ، الميلادي ، يجب أن نوافق بينهما ، بحيث يكون الغداء خارج شهر رمضان المبارك ، ولا يتعارض مع واحدة من الرحلات المنتظمة له إلى النجف ، في وطنه العراق .

ستكون الوجبة في منزله ، لأنه نادراً ما يأكل بالخارج ، "باسمٌ" يوضِّح ؛ ثمّ أضاف "إنه يتحدث الإنكليزية ، والفارسية " ، "ولكن يفضِّل استخدام لغته الأمّ ، العربية ، لأنه يمكن أن يكون أكثر دقة " .

"باسم" طالبٌ في الدراسات العليا ، في كلية الطب ، جامعة سيدني ، وباحث في أخلاقيات علم الأحياء ، وهو مَن سيقوم بالترجمة ، يعطي رسم أولي عن والده ، فيقول بأنه شاعر وكاتب ، وعالم ، وله نفوذٌ كحاكم شرعي عند المسلمين الشيعة .

يرنُّ هاتف المنزل دون توقف ، ومن المعروف عنه أنه يتلقّى المكالمات حتى في الساعة الرابعة صباحاً .

باسمٌ يقول : رجال الدين في مكانته السامية عادة ما يكون لديهم سائقون ، لكنه يقود سيارته بنفسه .

وفي العراق حيث تمَّ اغتيال "آيات الله" في الماضي، يرفض الحراس

الشخصيين ، لذلك بعض مصاحبيه يتصدّى لحمايته .

موقف "آية الله" العام ضدّ الإرهاب الإسلامي يجلب "الهيرالد" على عتبة منزله ، ذي الطابوق الأشقر ، في "بانكستاون" ، في يومِ"أحدٍ"، لمقابلةٍ نادرة .

وقد استخدم "فؤاد نجم" تعاليمه الإلاهية لتعزيز عمله في مكافحة الإرهاب ، في مركز للشباب قد مُوِّلَ اتحادياً ؛ والمركز مرتبط بمسجد بانكستاون، تحت إشراف "آية الله" .

"إن الإسلام لا يقرّ أيّاً من الإجراءات التي تؤدي إلى تدمير [و] قتل الناس"، آية الله يقول في أفكاره التي تنشر على الانترنت .

وقد ندّد بإساءة استخدام الدين مِن قِبَلِ الدعاة الذين نصبوا أنفسهم بأنفسهم ، واصفاً إيّاهم بالمحتالين ، على الرغم من أنه رفض ذكر أسمائهم .

الأنصاريون كانوا علماء دينٍ لِقرون ، ولكن "آية الله" بعد فترة قصيرة أمضاها في الهندسة المدنية[١] ، تحوّل إلى الدراسات اللّاهوتية .

في غرفة مغطاة بالخشب ، في مقدّمة منزل العائلة ، حيث كنا لتناول الغداء ، دخل وهو يحمل جاذبية منصبه ، ويفرض هيبته بعمامته البيضاء وزيّه الرسمي ، بعباءة سوداء ، و لحية ملونة بالأبيض والأسود .

ولكن بعد التحية التقليدية ، بوضعه راحته اليمنى على صدره ، تظهر عليه إبتسامة من الأعماق ، هي ضحكة رجل يرى كلّ يوم يعيشه مِن نافلة الحياة ، بعد ان عاش في عراق "صدام حسين" ، حيث كما يقول كان القمع شديداً

١ــ بهندسة الرّيّ، والبزل .

لدرجة أنه قد قُتِلَ رجلٌ لكونه قصّ رؤيا كان قد رءآها .

وهو يعلن من البداية أن أستراليا هي أفضل بلد في العالم ، في الحرية والفكر، وعدم التمييز.

ويضيف قائلاً : "إن الولايات المتحدة الأمريكية لديها تمثال الحرية ، أمّا أستراليا فلديها التطبيق العملي للحرية".

هو وعائلته جاءوا لاجئين في عام ١٩٩٩ ، بعد أن جرت محاولة لاغتياله في المدينة الشيعية المقدسة قم الإيرانية ، والتي فرّ اليها بعد دوره في انتفاضة العراق، عام ١٩٩١ ، لأنه كان أحد مساعدي آية الله العظمى السيد الخوئي ، وهذا قد وضعه كهدفٍ لنظام صدام حسين .

من خلال ترجمة "باسم" توضَّح أنه بعد هروبه بحياته ، لأنه قد قُتِلَ أغلب مَن كان على مقربة من السيد الخوئي .

كان واحداً مِن ثلاثة أعضاء[١] كوِّنت للضغظ على النظام العراقي يومها ،

١ــ وهذه اللجنة قد شُكِّلت بصورة سرّية ، تحت إشراف الحجة العامل السيد جواد الشهرستاني الممثل العام للمرجع الأعلى السيد علي السيستاني ، ورئيس مؤسسة آل البيت عليهم السلام للتراث ، في قم المقدسة ، وأمّا الشخصان الآخران فهما : الدكتور محمد جواد الطريحي ، وكان له نشاطه الإعلامي والثقافي يومها ، ومنالصحفيِّالاستاذ ضياء الحكيم (ابو عبد المطلب) .

وكنا صبيحة كلَّ يوم نذهب إلى سفارات العالم الإسلامي ، في طهران ، من مدينة قم ، ونلتقي فيها مع السفراء ، ونطالبهم ، باسم العلم والمعرفة ، وباسم الحوزات العلمية أن يوقفوا حملات إبادة العلماء هذه، لأنهم ذخيرة الدهر ، وكنوز الدنيا ، وإن كانوا من طائفةٍ معينة ؛ولا يصح ونحن في نهاية القرن العشرين أن يُقضى عليهم ، بدمٍ باردٍ ، جهاراً ، ولا من حسيب ، راجين منهم الكلام مع حكوماتهم للضغط على نظام صدام ، حتى لا يستمر بجرائمه تلك ، لأنها خسارة للعالم الإنساني كله ؛ وبنفس الوقت راجين منهم ألّا يصل هذا الأمر إلى الإعلام ، خوفاً على عوائلنا ومتعلقينا في العراق .

عيَّنها علماءُ الشيعة في إيران ، لكي تدين علناً النظام العراقي على عمليات القتل التي استهدفت العلماء ، بصورة علنية ،[١] باغتيالات متعاقبة ، باغتيال الواحد بعد الآخر ، التي قام بها في عاصمتهم الدينية النجف الأشرف .[٢]

يتظاهرون بأنهم أصدقاء ، زوجان مع طفل ، وبمعيّتهم أسلحة ، مزودة بكواتم صوت ، مخفيّة ، عبروا حراس الأمن في منزل "آية الله" في قم ، ولكنه حُفِظَ لأنه كان خارج المنزل وقتها ؛ إنه يعتقد أنها مؤامرة تمّت إدارتها عن طريق

وبالفعل لم يصل الأمر للإعلام ، ولكني ذكرته لأول مرّة في الإحتفال المقام بأربعينية الشهيد السعيد المرجع الديني الكبير ، السيد الصدر الثاني ، والظاهر أنّ ذلك الضغط الذي ولّدناه بتلك الزيارات لم ينفع إلا بتأخير عمليات الإغتيال ، حيث توقف النظام عن عملياته ، ثم عاد إليها ، بعد عدّة أشهر ، ومن جملة ما قاموا به ، قاموا باغتيال هذا العالم الجليل ، مع ولديه ، في طريق عودته إلى بيته ليلاً ، في منتصف شارع البريد ، الواقع في منطقة الحنانة ، إحدى ضواحي مدينة النجف الأشرف ، حيث انهالوا عليهم برصاصٍ كثيف ، فاستشهدوا جميعاً ، يوم الجمعة ، ١٩ / ٠٢ / ١٩٩٩م. .

وكان الإحتفال المذكور قد أقيم في جامعة طهران ، وحضره من الحوزة العلمية في قم المقدسة ، سماحة الفاضل والكاتب الإسلامي السيد سامي البدري ، وكاتب هذه السطور ، حيث ألقيتُ كلمةً بهذه المناسبة المؤلمة هناك .

١ــ وهذا قد حدث سنة ١٩٩٨ م . والتي فيها توجهت خطط النظام المقبور لتصفية المرموقين من علماء الشيعة ، في حاضرة العلم الكبرى النجف الأشرف ، فبدأ بتفجير قناني الغاز المعدّة سلفاً بصورة مترابطة فنيّة لتنفجر قرب مساكنهم ومجالسهم ، أو بالمتفجرات ، كما حاول تفجير قنبلة لاغتيال المرجع الديني المعروف أستاذنا سماحة الشيخ بشير النجفي ، في تلك السنة .

٢ــ التي طالت في تلك الأيام مراجع دينٍ كبار ، كالشهيد السعيد الشيخ مرتضى البروجردي (عمره ٧٠ عاماً) ، وقد قُتِلَ بدم بارد في زقاق بيته ، برصاصة جبانة ، وبقلب بليد ، من يدٍ رذيلة ، بتاريخ ١٩٩٨/٠٤/٢١ ، بعد أشهر من محاولة اغتياله وآية الله الشيخ علي الغروي ، بتفجير قناني الغاز ، وأصيبا بإصابات بسيطة حينها ؛ ثم بعد أقل من شهرين بقليل ١٩٩٨/٠٦/١٨ ، قام النظام باغتيال الشهيد السعيد الشيخ علي الغروي ، وثلاثة من متعلقيه كانوا معه ، بمطر من الرصاص ، على طريق كربلاء.

نظام صدام حسين .

بنفس طبيعة آيات الله في العراق قال إنه يتحدّث عن السياسة بشكل غير مباشر ، ونادراً .

يُسأل عن ايران ، فيقول هناك السفير الإيراني ، في كانبيرا .

العراق ؟ : إنه ليس رجل سياسة .

هناك نوعان من الممثلين – أولئك الذين تراهم في السينما ، وأولئك الذين هم الساسة ؛ إنّه لا يرغب في أن يكون مُمَثِّلاً ، لأنّه باحثٌ عن الحقيقة ، ويؤمن بشفافية القِيَم ، كما يقول .

"باسم" وشقيقه "مظفر" يضعان الأكل على طاولة طويلة ، ومنخفضة ، مع أطباقٍ من الطعام العراقي ، المطبوخ بيد والدتهم ، المولودة في النجف ، مليحة الخليلي .

"إنّ أفضل هدية يعطيها اللهُ الرجلَ زوجة صالحة ، لذلك لقد أعطيت هدية عظيمة ." "آية الله" يقول .

فهل له زوجة واحدة ، تسأل "الهيرالد" مِن تحت غطاء الرأس الأسود والأبيض المهذَّب ، الذي استعارته من نساء العائلة ؟

"نعم ، لأنه من الصعب الزوجتان"، "آية الله" يقولها باللغة الإنجليزية ، وبضحكة عميقة ، هذه ليست ممارسة يُشجّعُ عليها ، وخاصة في المجتمع الحديث .

الوليمة تشمل البامية والأعشاب المطبوخة ، مع الثوم ، والطماطم ،

والبهارات ، والمخللات ، الطرشي، السلطة الخضراء ، و"حكاكة الخبز" ، مع الأرز ، الذي وضعنا الحساء النجفي الغني بالعشب ، المدعو بالسبزي عليه ، وخلطنا أكلنا بعلبٍ صغيرة من ال "سفن آب" ، وتابعناه بالتمر، وحلاوة الجزر المحلية الصنع ، والطحينية ، وسلطة الفواكه .

"آية الله" يؤكّد على أوجه التشابه بين أستراليا والنجف كمركز متعدد للثقافات ، حيث الطلاب من جميع أنحاء العالم تجتمع فيه ، ويمكن العثور فيه على كل مطبخ .

وهل ذاق الغذاء الأسترالي ؟ ، " الشواء " يجيب باللغة الإنجليزية .

وقد انضمت "أمّ باسم" ، وشقيقته التوأم "بسمة" لنا ، وحان الوقت لاستجواب وجهات نظر آية الله على حقوق الزواج ، وقد كتب أن المرأة حرّة في اختيارها ، ومتساوية مع الرجل في جميع الحقوق ، والواجبات ، ومع ذلك يقول: الزواج لا يمكن أن يمضي قدماً في حالة عدم موافقة والد المرأة ، وكذلك نراه يقول بأنّ الزوج إذا أدّى حقوق الزوجية له أن يقرر ما اذا كانت يمكن أن تخرج من المنزل أم لا ؛ هل هذه هي الحرية والمساواة ؟

الجواب يستغرق حوالي ٢٠ دقيقة ، كما انه يصف دور الأسرة في الفكر الإسلامي ، ويبين أن الدين " متعدد الأبعاد ، متعدد الطبقات في النظام القانوني" ، ويوضّح دور كلٍّ طرف في الزواج .

وبعدها يضيف قائلاً :

"عندما نقول بالمساواة ، هذا لا يعني أن واحداً يساوي واحدا ، فهو لا يعني المساواة الحسابية ، بدلاً من ذلك ، نحن نفكّر في التوازن ، وبالتالي فإنَّ

الحياة الأسرية يمكن أن تستمر ، وفي الوقت نفسه يشعر كلا الطرفين بالمساواة في الإهتمام به . " .

فبسبب الاختلافات الفسيولوجية المتعلقة بالمرأة ، والحمل لها ، فإنّه من غير العملي للرجل الإسترخاء في المنزل ، بينما تقوم زوجته بالعمل في الخارج ، فيصبح العبأ العملي للعائلة كله عليها ، وهو ثقيل جداً ، كما يقول ، بل ليس على المرأة أن تقوم حتى بالطهي عندما تكون حاملاً .

في المفهوم الإسلامي للقيادة ، يجب أن يكون هناك من يقود الأسرة خارج المنزل ، حتى لو كان هناك زعيم آخر في داخله ، وقد أعطيَ هذا الدور للرجل ، لأنه عندما يكون هناك أطفال ، هناك واجبات معينة المرأة غير قادرة على القيام بها ، كما يقول. " إنّ الأسرة مثل السفينة ... حتى لو كان هناك شخصان فقط في السفينة ، لابد أن يكون أحدهما القبطان ، إذا كان لديك اثنان فيها ، السفينة ستغرق في نهاية المطاف حتماً ."

ومع ذلك خديجة ، زوجة النبي [صلى الله عليه وآله] ، كانت سيدة أعمال ، وحتى لو كانت المرأة تعمل ، ولو كانت صاحبة ملايين على زوجها توفير كل قرش من أجل ملابسها ، وطعامها ، والنفقات الضرورية الأخر ، إذ أنّ ذلك واجبٌ شرعي عليه ، كما يقول .

ومع ذلك سألت : "آية الله" وهو الذي يفهم القمع ، بعد أن عانى في عهد صدام حسين ما عانا ، وماذا إذا كان الزوج طاغية ، لا يسمح لزوجته بالخروج؟

إذا الزوج استغل سلطته ، الزوجة تستطيع أن تقول لآيات الله ،الذين هم المرجعيات الدينية، وهم سوف يعطونه تحذيراً ، كما قال ، ثمّ أضاف "إذا كان لا

يتبع التحذير ، وإذا اختارت [القيام بذلك] ، فإنها حينئذٍ تستطيع أن تطلقه".

يصبح من الواضح لماذا هاتف آية الله دائما يرن ، فمِن النزاع بين الرجل وزوجته ، إلى الصراع الوطني ، لديه دور .

قبل عام ، كان الموقّع الأول من الشيعة في استراليا في كتابهم للأمم المتحدة، يدعوها إلى اتخاذ إجراءات فورية لوضع حدٍّ للمجازر بحق المتظاهرين السلميين في البحرين .

وهو أيضا على استعداد للتحدث علنا ضدَّ انتشار الإرهاب العالمي.

إنه يستخدم استعارة من البذور ، التي صارت بعمق من الصعب أن تُقْتَل ، في حين يمكن أن نحطب في الشجرة ، التي نمت في ظروف بيئية كانت مؤاتية لها في السنوات الأخيرة ، ولا يزال من الصعب اجتثاث البذور ، كما يقول ، لمجيء السلام ، ثم يضيف قائلاً : يجب أن يكون هناك حلٌّ سماوي .

"لسوء الحظ فإن الإسلام هو دين مظلوم ، وإنه ليس مضطهداً من قبل الآخرين فقط ، ولكنّ الظالمين أولاً وأخيراً للإسلام المسلمون أنفسهم ، من خلال ممارسة بعض الأعمال ، والإدّعاء أنها من الإسلام ، بينما هيَ ليست منه بشئ .".

عندما تُظهر شاشات التلفزيون مشاهد من العراق لِشخصٍ يستولي على شاب ويذبحه ، وهو يهتف "الله أكبر – الله أكبر"، والعداوة والبغضاء التي في قلبه تظهر بكلّ وضوح ، مرتسمة على وجهه ، هذا ليس له ايّ علاقة مع الإسلام ، و بفعله هذا ، فإنّه قتل الإسلام نفسه ، كما يقول .

ويضيف : أضرب لك مثلاً من صميم فقه الإسلام ، وحكمه ، ليتبين الأمر: حكم الإسلام في ذبح الشاة ، لأجل الأكل ، إنه ينبغي أن يتم ذلك بعيداً عن الناس ، والحيوانات الأخر ، و ينبغي أن لا يتم عرض السكين على الذبيحة المراد ذبحها ، رأفة بها ، وقبل ذلك عرض الماء عليها ،فإذا كان منهج الإسلام في ذبح الحيوان هذا ، فكيف يتم ذبح رجل هكذا ؟

إنها جريمة ضد الإسلام نفسه عندما يتم ذبح رجل باسمه أمام كاميرات التلفزيون ليشاهده العالم بأسره .

ثم يضيف قائلاً : لقد أبقى المفكرون الدينيون الشيعة العراقَ في مأمنٍ من الحرب الأهلية ، وذلك بالدعوة للسلام .

سمع من لسان آية الله العظمى السيستاني شخصيّاًأنه أصدر "فتوى"، أو أمراً دينياً ، يحظر على الشيعة الرَّد ، حتى عندما يتعرضون لهجوم ، أتمّ قوله .

الغداء ينتهي ببروتوكول : السيدة الأنصاري تعطيني خاتماً مرصّعاً بدرٍّ النجف ، ويقدم لي "باسم" هدية عبارة عن كتاب ل"آية الله" قام هو بترجمته : "الإستنساخ البشري : دراسة إسلامية في مشروعيته وآثاره".

الساعة الرابعة مساءاً ، وآية الله يغادر الى موعد آخر ، يرنّ هاتفه مرة أخرى...!

حياة ، وأوقات :

١٩٥٢ ولد في مدينة العمارة ، العراق ، في عائلة علمائية .

١٩٧٣ شهادة في الهندسة المدنية من بغداد.

انتقل عام ١٩٧٥ إلى النجف الأشرف لدراسة العلوم الشرعية والقانون.

١٩٧٩ تزوج مليحة الخليلي من النجف.

عام ١٩٩١ شارك في الإنتفاضة الشعبية في العراق ، وكان مِن جُملة مساعدي آية الله العظمى السيد الخوئي ، وأجبر على الفرار إلى إيران .

بلغ عام ١٩٩٥ رتبة الاجتهاد ، وهي أعلى درجة علمية عند الشيعة .

١٩٩٩ بعد محاولة اغتيال ، قام بها نظام صدام حسين ، جاء إلى أستراليا مع عائلته لاجئاً.

أسّس ٢٠٠١ مسجد الرسول الأعظم ، في بانكستاون.

٢٠٠٣ بدأ بالموكب السَّنوي للسلام ، مع أتباعه ، الذي يمرّ من خلال مركز مدينة سيدني التجاري .

٢٠١١ بدأ مركز الشباب ، المرتبط بالمسجد ، عمله لمكافحة الإرهاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

على ضوء المقابلة السابقة ، وما جرى فيها من حوار وكلام ، تم تأليف هذا الكتاب للوقوف على اهم ماجرى في الحوار من مفردات ، وشرح لبعض المفاهيم الاسلامية ، ورد لبعض الشبه التي تحاك ضد الاسلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

جاء الإسلام في ظروف صعبة ، في بلد صحراوي قاس ، ((..**بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ**...))[1] ، ولكنَّ ناسه كانوا مختلطين ببقية الناس أكثر من غيرهم ، وهذا لعله من المفارقات العجيبة .

ويرجع ذلك بلا ريب ولا شك ، إلى مكانة ذلك البيت ، الذين هم حوله ، عند الموحدين من جانب ، وعند المشركين من جانبٍ آخر ، وهو الأساس لهذا كله ، هذا من جهة ، ومن أخرى لِسببٍ اقتصادي بحت ، سيتبين فيما يأتي .

فعند الموحدين الحنفاء ، وهم قليل من الناس ، كان البيت الحرام مهوى أنفسهم ، فهو المكان الذي نزل فيه إبراهيم الخليل ، عليه وعلى نبينا وآله السلام، وأسكن فيه زوجته "هاجر"، وابنه "اسماعيل" ، الذي نشأ في هذه الربوع ، وترعرع ، فكان الحصن الحصين لهم ، هو وأولاده وأحفاده .

وعند المشركين كانت أصنامهم التي يقدسونها فوق ذلك البيت ، فهو مقصدٌ لهم في كلّ عام لأجل الحج إليها ، وإن كان هذا إرثاً ، قد توارثوه من الموحدين ، إلا أنهم استقرّوا عليه ، بعد أن شوّهوه ، ومهما كان ففي هذا اجتماعٌ للناس ، من أطراف تلك الأرض ، فلذا كانت هذه المدينة مهمة جداً لهم ،

١ــ سورة إبراهيم / ٣٧ .

ولأهميتها ، وأهمية ذلك البيت العتيد ، عُلِّقت عليه أفضلُقصائدٍ لهم لأشهر شعرائهم ، والتي سُمِّيَتْ بالمعلَّقات ، فالشعر كان عندهم من أروع تُراثهم ، وأعلاه .

وكان للشعر دور كبير في حياتهم ، لذا كان عندما يولد عندهم شاعر يقيم القوم احتفالات كبيرة ، احتفاءاً به ، فهو لسان العشيرة ، والمدافع عنها ، وأقربُ شيءٍ لزماننا مثالاً له، وَلِدورهِ في حياتهم، الإعلامُ بعينه .

وفي مثل هذه الأجواء ، كانت مهرجانات شعرية كبيرة تُعْقد بأماكن مختلفة، مِن أهمها "سوق عكاظ" ، حيث تأتيه العرب من كل مكان ، وتجتمع فيه، لمدة عشرين يوماً ، من بداية شهر ذي القعدة إلى العشرين منه ، حيث يتبارى الشعراء بينهم ، وبعد ذلك تذهب إلى "سوق مجنة" تبقى فيه عشرة أيام ، ومن بعدها تذهب إلى "سوق ذي المجاز" ، لمدة ثمانية أيام من ذي الحجة ، ومن هناك تشدّ الرحال إلى الحج [١].

هكذا كانت سيرتهم .

وأضيفت إلى ذلك ببركة هاشمٍ جدّ النبي ﷺ، رحلة الشتاء والصيف ، فكانت مركزاً تجارياً عظيماً يشهده الجميع ، (وذلك أن قريشا كانوا إذا أصابت واحداً منهم مخمصة، جرى هو وعياله إلى موضع معروف، فضربوا على أنفسهم خباء فماتوا؛ حتى كان عمرو بن عبد مناف، وكان سيد زمانه، وله ابن يُقال له أسد، وكان له تِرْب مِن بني مخزوم، يحبه ويلعب معه ، فقال له : نحن غداً نعتفر-

---

١ــ أنظر : د. ناصر بن سعد الرشيد / سوق عكاظ تاريخه ونشأته ؛ محمود شكري الآلوسي / بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب ؛ معجم البلدان / ج٤ / ص١٤٢ ؛ ابن الأثير / ج١ / ص٣٥٩ .

قال ابن فارس : هذه لفظة في هذا الخبر لا أدري : بالدال هي أم بالراء؛ فإن كانت بالراء فلعلها من العفر، وهو التراب، وإن كان بالدال، فما أدري معناها، وتأويله على ما أظنه : ذهابهم إلى ذلك الخباء، وموتهم واحداً بعد واحد ـ .

قال : فدخل أسد على أمِّه يبكي، وذكر ما قاله تِرْبُه.

قال : فأرسلت أمُّ أسدٍ إلى أولئك بشحم ودقيق، فعاشوا به أياماً.

ثم إنّ تِربَه أتاه أيضا فقال : نحن غداً نعتفر، فدخل أسد على أبيه يبكي، وخبّره خبر تربه، فاشتدّ ذلك على عمرو بن عبد مناف، فقام خطيباً في قريش ، وكانوا يطيعون أمره،

فقال : إنكم أحدثتم حدثا تقلون فيه ، وتكثر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله جل وعز، وأشرف ولد آدم، والناس لكم تبع، ويكاد هذا الاعتفار يأتي عليكم.

فقالوا : نحن لك تبع.

قال : ابتدئوا بهذا الرجل - يعني أبا ترب أسد - فأغنوه عن الاعتفار، ففعلوا.

ثم إنّه نحر البُدُن، وذبح الكباش والمعز، ثم هشم الثريد، وأطعم الناس؛ فسُمّيَ هاشماً.

وفيه قال الشاعر :

عَمرو الذي هشمَ الثريدَ لِقومهِ ورجالُ مكة مسنتون عجافُ

ثم جمع كلَّ بني أب ، على رحلتين : في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى

الشام ، للتجارات، فما ربح الغني قسّمه بينه وبين الفقير، حتى صار فقيرهم كغنيهم؛ فجاء الإسلام وهم على هذا، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ، ولا أعز من قريش، وهو قول شاعرهم :

والخالطون فقيرَهمْ بِغَنِيِّهِمْ حتّى يصيرَ فقيرُهُمْ كالكافي

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله محمداً ﷺ) [١].

قال أبو نصر البخاري[٢] :(أول من رفع الله تعالى من قريش قبل النبوة أربعة: هاشم والمطلب ، وعبد شمس ، ونوفل ، خرج هاشم في ألف من قريش إلى الشام ، فأخذ من قيصر ملك الروم عهداً لقريش ، ليتجروا في بلاده... وخرج المطلب إلى اليمن ، فأخذ من ملوك اليمن عهداً لهم ، وركب نوفل البحر فأخذ لهم من النجاشي عهداً .).

وفي الطبقات[٣]: (كان هاشم رجلاً شريفاً ، وهو الذي أخذ الحلف لقريش من قيصر ، لأن تختلفَ آمنةً . وأمّا مَنْ على الطريق ، فآلفهم على أن تحمل قريش بضائعهم ، ولا كراء على أهل الطريق ، فكتب له قيصر كتاباً...وخرج هاشم في أصحابه إلى الشام ، حتى بلغ غزَّة فاشتكى ، فأقاموا عليه حتى مات ، فدفنوه بغزة ، ورجعوا بتركته إلى ولده .) . إنتهى .

١ــ أنظر : جُلّ التفاسير ، منها : تفسير القرطبي / في تفسير قوله تعالى : ((لإيلاف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف)) ؛محمد رشيد رضا / سيدنا محمد / مناقب أجداده ؛ وانظر كتب السيرة كسيرة ابن إسحق ، (ت١٥١ هج.) ؛ و سيرة ابن هشام .

٢ــ في سرّ السلسلة العلوية / ٣ .

٣ ــ ٧٨/١ .

(وكان هاشم أوّلَ من سنَّ الرحلتين ، فكان يرحل في الشتاء إلى اليمن ، والى الحبشة فيكرمه النجاشي ، ويرحل في الصيف إلى الشام ، وبها مات ، وربما وصل إلى أنقرة ، فيدخل على قيصر فيكرمه . ومن خِصال بني هاشم ما عبّر عنها علي بن أبي طالب (عليه السلام) : خُصِصْنا بِخَمْس: فصاحة، وصباحة ، وسماحة ، ونجدة ، وحظوة .)[1].

ومعنى تأسيسه رحلتي الشتاء والصيف ، أنّه عقد معاهدات مع قيصر وكسرى ، والقبائل التي تمر فيها قوافلهم بين مكة واليمن ، وبين مكة والشام وفلسطين ومصر ، بعدم التعرض لها وحمايتها .وقد أسّس هاشم إطعام الحجيج، كذلك : (وإنّما سُمّيَ هاشماً لِهشمِهِ الثريد للحاج .

وكانت إليه الوفادة ، والرفادة ، وفيه يقول مطرود بن كعب الخزاعي:

عَمروُ العُلى هَشَم الثريد لِقومِهِ ورجالُ مكةَ مُسْنِتُونَ عِجاف[2]

(أصاب الناس سنة جدب شديد ، فخرج هاشم إلى الشام ، وقيل بلغه ذلك وهو بغزة من الشام ، فاشترى دقيقاً وكعكاً ، وقدم به مكة ، في الموسم ، فهشم الخبز والكعك ونحر الجزر ، وجعله ثريداً ، وأطعم الناس حتى أشبعهم، فَسُمِّيَ بذلك هاشماً، وكان يقال له : أبو البطحاء ، وسيد البطحاء .)[3]. }[1] .

١ــ (معجم قبائل العرب لعمر كحالة : ١٢٠٧/٣ ، وذكر مصادره : ابن خلدون:٣٢٨/٢ ، والطبري:٢٣/٥ و:٤٨/٩)

٢ــ إضافة : ذكر هذا البيت ، ولم يذكر غيره ، المرزباني (أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني) (٢٩٧ هـ – ٣٨٤ هـ) / معجم الشعراء / حرف العين / باب ذِكْر مَن اسمه عمرو / هاشم ، (وهو أول اسم ذكره) / وبعد ذكر اسمه الشريف ، ونَسَبِهِ ، قال : وفيه يقول مطرود بن كعب الخزاعي : عمرو العلى ...البيت .

٣ــ تاريخ الطبري: ٨/٢ ، واليعقوبي: ٢٤٥/١ .

ومما يُنسب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

أنا ابنُ ذي الحوضين عبدِ المطلبْ وهاشمِ المُطْعِمِ في العام السَّغِبْ[٢]

وقد ذُكِرَتِ الرحلتان في القران الكريم ، في سورة قريش ، إذ قال تعالى :

((بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم لإِيلَفِ قُرَيْشٍ إِيلَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَآءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءامَنَهُم مِّنْ خوْفٍ)) [٣].

وبذلك كله نمت مكة المكرمة ، وظهرت لكل عين .

فسادتْ قريشُ العربَ، لأنَّهم خزنة الكعبة ، ومصدر الرزق.

ومع هذه الظروف العصيبة ، كانت العصبية القبلية بأوجها ، والحروب بينهم ، على قدمٍ وساق ، إلا في أشهرٍ أربعةٍ ، تُسمى عندهم بالأشهر الحُرُم ، حيث يحرّم القتال ، ويتوجهون فيها للعبادة ، والتجارة ، والمفاخرة .

ومن ولعهم وحبهم للقتال في أغلب الوقت ، كانوا يُنْسِؤن تلك الأشهر لغيرها[٤] ، إذا كانوا في حالة حربٍ وغزوٍ ، أو كما اشتهى بعض ساداتهم .

١ــ الشيخ علي الكوراني / السيرة النبوية عند أهل البيت عليهم السلام ج١ / الفصل الخامس / مكانة آباء النبي صلى الله عليه وآله عند العرب ، بتصرفٍ غير مخل .

٢ــ أنظر : الطريحي / مجمع البحرين / مادة حوض .

٣ ــسورة قريش .

٤ــ وهذه الحالة التي تُسمى بالنَّسِئ ، ذكرها القران الكريم ، ووسمها بزيادة في الكفر . قال تعالى : (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (٣٧) سورة التوبة. يحلُّون الذي أخَّروا تحريمه من الأشهر الأربعة الحرم،عامًا (ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرم الله)، يقول : ليوافقوا بتحليلهم ما حلَّلوا من الشهور ، وتحريمهم ما حرموا منها ، عدّة ما حرّم الله (فيحلوا ما حرّم الله زُيِّن لهم

لِذا نشأ أغلبهم قاسي القلب .

كلّ فردٍ منهم معجبٌ بنفسه أشدّ الإعجاب ، فغدا كل واحد منهم لا يشعر إلّا وهو كفرعون زمانه ، ونمروده ، فكيف بساداتهم ؟!

وبين هذه وتلك كانت المرأة أحد المحاور الأساسية في الحياة ، إلا أنّها مغموطة الحق ، في أغلب قبائل العرب ، مهانة في كثير من التصرفات ، في أسوء حال ، وإن كانت لهم أمّاً ، أو اختاً يدافعون عنها حتى الموت ، إلا أنها بينهم لا شأن لها ، ولا احترام ، وسيمر عليك بعض أفعالهم معها .

وجاء الإسلام كما قلنا ليقول لهم كلا ، وألف كلا .....

سوء أعمالهم) أنظر التفاسير ، ومنها تفسير الطبري . (هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة ، وتحليلهم ما حرم الله ، وتحريمهم ما أحل الله ، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامية ما استطاعوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم ، المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم ، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر ، فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال ، ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة .) .تفسير بن كثير ، في تفسير هذه الآية المباركة . و ذكر ابن هشام ، في كتابه "السيرة النبوية": أن أبا ثمامة جنادة بن عوف ، كان آخرهم ، وعليه قام الإسلام ، وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه ، فحرّم الأشهر الحرم الأربعة : رجباً ، وذا القعدة ، وذا الحجة ، والمحرم . فإذا أراد أن يحل منها شيئاً أحلّ المحرم فأحلوه ، وحرّم مكانه صفر فحرّموه ، ليواطئوا عدّة الأربعة الأشهر الحرم . فإذا أرادوا الصدر ، قام فيهم فقال : اللهم إني قد أحللت لك أحد الصفرين ، الصفر الأول ، ونسأت الآخر للعام المقبل .السيرة النبوية – ابن هشام – ج١ ص٢٩ .

الفصل الأول

حال المرأة في أغلب العصور

المرأة الكائن اللطيف الرقيق المملوء حيوية وحنان ، لأنه كذلك كانت على مر التاريخ ، وإلا ففي أغلبه مظلومة مهضومة ، تمسي وتصبح وهيتابعة للرجل،قام أو قعد ، حتى ازدادت تبعيتها بشدة إلى أن وصلت في أحيان كثيرة كتبعية العبد لسيده ،بل بعضهم كان يعتبرها مملوكة الرجل فعلاً ، وهي لا تملك أي شئ ، بل اعتبرها البعض رمزاً للذنب والخطيئة في حياة سابقة ، فروحها كانت مذنبة ، فعوقبت بصيرورتها إمرأة ، وقد جرّهذا ، وأمثاله إلى قتلها وهي صغيرة ، وإن خلصت من هذه القتلة ، فهي ستُقتل في كثير من الأحيان بعد موت زوجها [1]،ولو لم تقتل فإنها ستعيش بتعاسة ، إذ عليها أن تحزن إلى الأبد ، فليس لها أن تشترك بأيّ سرور بعدها ، وعليها ألا تأكل إلا مرة واحدة في اليوم ، ومع هذا فعليها الصيام عن الطعام والشراب كل شهر يومين ، وتقص شعرها، إلى غير ذلك من هذه التعاسات .

بل حياتها تعيسة حتى بدون ذلك ، فالتعلم الذي هو روح الحياة ، ولذتها حرام عليها.

وإذا تحررت فالإباحية المطلقة كما حدث في بلاد فارس في زمن قباذ والد أنوشروان ، على يد مزدك ، إذ أحلّ النساء ، وأباح الأموال ، وجعل الناس

١ــ وكانت تُعرَف هذه الظاهرة بعادة " ستي " عند الهندوس .

شركة فيها ..على ما عبر به صاحب كتاب الملل والنحل [١].

وكانحالهافي الجزيرة العربية لا يبعد عن هذهالأحوال، حيث الوأد لهم عادة، والسبي للنساء سنة وسعادة .

كانت متاعاً ، لا ترث بل هيَ توَّرّث ، وليس لها أي حق مع زوجها ، ولا حدّ لتعدد الزوجات ، بل قد يشترك عدة رجال بأمرأة واحدة ، وللرجلسواء أكان أباً أو أخاً أو ابن عم أن يزوِّجها لمن شاء ، ولا خيار لها ، وهكذا .....

ولندع القران يرسمها لنا بتعابير الوجه ، وخلجات القلب :

قال تعالى : ﴿.... وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُون ﴾[٢]

هذه صورة مَن تولد له أنثى .

فكيف ستعيش هذه الفتاة المسكينةإن عاشت بين قومٍ والدُها فيهم هذه حالته ؟!

فاترك لتصوراتك العنان، ليرسم حالة المرأة في هذا المجتمع الجاف القاسي.

وقد تُترك عند الزوج ضراراً ، بعد أن تلاقي من الزوج نشوزاً ،وإعراضاً .

ومما رويَ عن ابن عبَّاس أنه قال :

١ــ الشهرستاني / الملل والنحل / من له شبهة كتاب / الثنوية / ص٨١ ، ج١ / ٢٤٩ ، تاريخ الطبري / ٨٨ ،والموسوعة الحرة ، آراء الهند مثلاً ، البراهمة ، الهندوس ، المجوس ، وما كُتِب في هذه الشؤون .

٢ــ النحل: ٥٧ – ٥٩.

"كان الرجلُ إذا مات أبوه ، أو حَمُوه فهو أحقُّ بامرأته، إنْ شاء أمسكها، أو يحبسها حتى تفتدي بصَداقها، أو تموت فيذهب بهالِها . "[١] .

وفي أحيان يكون حالها حال الدوابِّ ، والبهائم ، فإذا اشتهى الزوجُ أن تلد له ولداً نجيباً باعتقاده ، فإنه يُرسِل زوجته لِأحد وجهاء القوم ، لِتحملَ منه حملاً، بعد أن يضربها ذلك الفحل ضِراباً ، وترجع لزوجها لمّا يستبين حملها من ذاك الرجل " العصامي " !!!!!!

وقد جاء بعض ذلك بما أخبرت به عائشةُ ، عروة بن الزبير ، إذ قالت :

(انَّ النِّكاحَ كان في الجاهلية على أربعةِ أنحاءٍ :

فكان منها نكاحُ الناس اليومَ: يخطب الرَّجلُ إلى الرجل وليَّته ، فيصدقها ، ثم ينكحها .

ونكاحٌ آخرٌ : كان الرجلُ يقول لامرأته إذا طَهُرَتْ مِن طمثها ، أرسلي إلى فلان ، فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجُها ، ولا يَمَسُّها أبداً ، حتّى يتبيَّن حملُها من ذلك الرجل ، الذي تستبضع منه ، فإذا تبين حملها ، أصابها زوجها إنْ أحبَّ؛ وإنّما يفعل ذلك ، رغبةً في نجابة الولد ، فكان هذا النكاح يُسمى "نكاح الاستبضاع" .

ونكاحٌ آخرٌ : يجتمع الرهط دون العشرة ، فيدخلون على المرأة ، كلُّهُمْ يصيبها ، فإذا حملتْ ووضعت ، ومرَّ ليالٍ بعد أن تضع حملها ، أرسلتْ إليهمْ ، فلم يستطع رجلٌ منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، فتقول لهم قد عرفتمُ الذي كان مِن أمركم ، وقد ولدتُ ، وهوَ ابنُك يا فلان ، فتسمّي مَن أحبّت

١ــ رواه أبو داود .

منهمْبِاسمِهِ ، فيلحق به ولدُها .

ونكاحٌ رابعٌ : يجتمعُ الناس الكثيرُ فيدخلون على المرأة ، لا تمتنع مِمَّن جاءها، وَهُنَّ البَغايا ، كنَّ ينصبنَ على أبوابِهنَّ راياتٍ ، يكنْ علماً لِمَن أرادهنَّ ، دخل عليهنَّ ، فإذا حملت ، فوضعت حملها ، جُمِعُوا لها ، ودَعَوا لهم القافة ، ثمَّ ألحقوا ولدَها بالذي يرَونَ فالتاطه ، ودُعيَ ابنَهُ ، لا يمتنع من ذلك ، فلمَّا بعث اللهُ محمَّداً صلى الله عليه (وآله) وسلم ، هدم نكاحَ أهلِ الجاهليةِ كلّه ، إلَّا نكاحَ أهلِ الإسلامِ اليوم .)[١] .

بل كانوا يُقامرون على زوجاتهم مثلما كانوا يقامرون على أموالهم .[٢]

والوأد كان لهم عادة، لأيّ سببٍ كان ، سواء أكان للإملاق ، أو الخوف منه، أو للخوف من العار بالسبي ، أو لكراهية النوع .

أو كما قال السيد المرتضى (رحمه الله) في أماليه : (فأما الموؤدة فهى المقتولة صغيرة ، وكانت العرب في الجاهلية تئد البنات ، بأن يدفنوهنّ أحياءاً ، وهو قوله تعالى ((أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ))[٣]

١ــ سنن أبي داود / كتاب الطلاق / باب في وجوه النكاح التي كان يتناكح بها أهل الجاهلية . / ح ٢٢٧٢ / حيث قال : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا عنبسة بن خالد ، حدثني يونس بن يزيد ، قال قال محمد بن مسلم بن شهاب ، أخبرني عروة بن الزبير ، أن عائشة رضي الله زوج النبي صلى الله عليه (وآله) وسلم ، أخبرته .

٢ــ أنظر الطبري في تفسيره لآية ((إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ..)) المائدة ٩١ .

٣ــ سورة النحل / ٥٩ .

وقوله تعالى:((قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ))[١]

ويقال إنهم كانوا يفعلون ذلك لأمرين.. أحدهما أنهم كانوا يقولون إنّالاناث بنات الله ، فألحقوا البنات بالله ، فهو أحق بها منا ، والأمر الآخر إنهم كانوا يقتلونهنّ خشية الاملاق ، قال الله تعالى : ((وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ))[٢] .[٣]

وهذا كله وصفه القران الكريم ، وذكره .

وإذا مات الزوج فتبقى في بيتها سنة كاملة ..لا تقرب طيباً ولا تلبس ثوباً حسناً، ولا تمشط شعرها ، ولا تقلم أظفارها .

وفي هذا الجو المشحون بما رأيت وسمعت جاءهمالإسلامبالرفض التام.....

خلقك الله أيّها الرجل كما خلق المرأة من نفسٍ واحدة .....

قال تعالى:((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...))[٤]

وكأنه حتى لا يُقال كما قيل من أن المرأة ليست من نوع الرجل ومعدنه .

قال تعالى : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا))[٥].

١ــ سورة الأنعام /١٤٠ .

٢ــ سورة الأنعام/١٥١.

٣ــ السيد المرتضى / الأمالي / ج٤ / ص١٩٠ .

٤ــ سورة النساء / ١ .

٥ــ نفس الآية المباركة .

وهكذا كانت الخليقة :

خلق الله آدم ، تلك النفس الواحدة ، وخلق من تلك النفس زوجها ، وبث منهما ، لا مِن أحدهما ، رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءاً، فالناس كل الناس الناتج المشترك ما بين الرجل والمرأة .

ومن هنا ستُرسَم معالمُ البنت ، والأم ، والأخت ، فالأقرباء المتصلون بهذا وغيره من الرابطة الدموية ، كما ظهرت فيها معالم الأم واضحة بيّنة .

ولذا إشارةً لِحقوقِ كلٍّ قال في نهاية الآية المباركة ((وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)).

الفصل الثاني

الصورة التي رسمها القران وبيّنها لِتكوِّن الإنسان ، الذكر منه والأنثى

فيا أيها الإنسان أنت الذي يُنتجك الزوجان .....

وهذا كله كان أشبه بثورة عظيمة في ذلك الوضع القائم ، كان خروجاً عن الثقافة المنتشرة ما بين الناس في ذلك الوقت ، من أن الرجل هو الذي يلقي الجنين بأي صورة كانوا يعتقدونها في رحم المرأة ، وهي تستقبله ، وليس لها إلا نماؤه .

ومع هذا الإعتقاد السائد ، كانوا يلومون المرأة إذا انجبت أنثى ، فما هو الحق لو كانوا يعقلون ؟!

والصورة التي رسمها القران وبيّنها لِتكوّن الإنسان ، الذكر منه والأنثى ، في داخل رحم الأم ما كان ليُفهم ، بل لم يُفْهَم حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، وترسّخ ذلك وأُكِّد في بداية القرن العشرين الميلادي .

ولابد من البيان هنا أن العلماء كانوا يعتقدون ، وليس الناس فقط إلى القرن السابع عشر الميلادي (حوالي ١٦٩٤ م. ـــ ١١٠٥ هج.) ، مع وجود المجهر الضوئي آنذاك أن الجنين يوجد في الحيوان المنوي ، كاملاً ، بلحمه ودمه وعظمه، ثم ينتقل إلى رحم المرأة ، ليكبر هناك .

والعجيب أنَّ تطور الجنين وتكامله بمراحله ، قد وصَفَه القرانُ الكريم وصفاً دقيقاً وهو كما وصف، مع هذا لم يُعرف هذا الوصف إلّا بعد الإكتشافات

الحديثة ، وتقدّم آلات التنظير الجوفي ، و(السوبر كومبيوتر) في نهاية القرن العشرين ، وبداية القرن الحادي والعشرين الميلادي .

(حيث كان يعتقد لقرون أن الإنسان يخلق كقزم كامل ، من دم الحيض، وبعد اكتشاف البييضة قالوا إنّ الإنسان يُخلق كاملاً فيها ، وبعد اكتشاف الحويمن المنوي قالوا : بل إن الجنين يخلق كاملاً في رأس الحويمن المنوي.

وانقسم العلماء بين مؤيد لنظرية الخلق التام في البييضة أو الحويمن المنوي ، ولم ينته الجدل بين الفريقين إلا في عام ١٧٧٥م ، عندما أثبت "سيالا نزاني" أهمية كل من الحويمن المنوي والبييضة في عملية التخلّق البشري، ولم يتوصلوا إلى حقيقة أن الإنسان يُخلق من اختلاط أمشاج الذكر بأمشاج الأنثى إلا في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، عندما تمكن " هيرتوج، Hertweig" عام ١٨٧٥م ، من ملاحظة عملية تلقيح الحيوان المنوي للبويضة، وتم تأكيد ذلك عام ١٨٨٣م ، عندما تمكن "فان بندن ، Van beneden" من إثبات أن الحيوان والبويضة ، يُساهمان بالتساوي في تكوين البويضة الملقحة.) [١].إنتهى .

والعجيب أن أمثال هذه الإعتقادات استمرت حتى عند العلماء المسلمين ، فضلاً عن عامة الناس مع وجود القران الكريم بين أيديهم ، مع البيان الواضح الذي فيه ، فهاك ما قاله "ابن سينا" وهو مَن هو :

((ويقولون أنّ مَنيَّ الذكر إذا خالط فعل بقوَّته، ولم يكن لِجُرْميَّته كبيرُ مدخلفي تقويم جُرْميَّة بدن المولود، فإنّ ذلك من منيِّ**الأنثى**، ومن دم الطَّمث،

١ــ"وقفة مع "النطفة" / د.أحمد الحميدي ، أستاذ علم الأجنة المشارك ، جامعة الملك سعود / الهيئة العامة للإعجاز العلمي .

بل أكثر عنائه في جرمية روح المولود، وإنّما هو كالأنفحة الفاعلة في اللبن .

وأما مني **الأنثى**فهو الأسّ لجرمية بدن المولود، وكلُّ واحدٍ منهما يغزره ما يولد دماً حاراً، رطباً، روحياً.))[١] .

فعلينا أن نتدبر القران أكثر فأكثر ، كي نستخرج ما فيه من درر ، ضيّعها الناس ، إما بطلب الدنيا أوّلاً ، بالإبتعاد عن الدليل إليه ، أو بالتعصب الأعمى ثانياً .

((بِسْمِ اللهَّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِسِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِيأَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَايُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللهُّ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ))[٢]

هذا هو الإنسان بذكره وأنثاه :

((خُلِقَ مِن ماءٍ دافقٍ)) ((يخرج من بين الصُّلب والترائب))[٣].

ولا بأس أن ننقل من الجهة العلمية ما قاله الدكتور "محمد علي البار"[٤]في كتابه " خلق الإنسان بين الطب والقران" ، ليتبين دقة ما ذكره القران الكريم في خلق هذا المخلوق العجيب ، بتصرف قليل لا يخلّ بأدب النقل ، ولا بالمعنى : (تقول الآية الكريمة أن الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب ، ونحن قد

١ــ ابن سينا / القانون في الطب / فصل في سبب المني / ص٨٥١ .

٢ــ سورة التين / ١-٧ .

٣ــ الطارق / ٦ -٧ .

٤ــ استشاري أمراض باطنية ، مستشار قسم الطب الإسلامي ، مركز الملك فهد للبحوث الطبية وجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، زميل الكليات الملكية للأطباء في المملكة المتحدة ، غلاسجو وأدنبره ولندن .

قلنا أن هذا الماء (المني) إنما يتكون في الأنثيين وملحقاتهما ، كما تتكون البويضة في المبيض لدى المرأةفكيف تتطابق الحقيقة العلمية مع الحقيقة القرآنية ؟[1] إن الأنثيين والمبيض ، إنما يتكونان من الحدبة التناسلية بين صلب الجنين وترائبه، والصلب هو العمود الفقري ، والترائب هي الأضلاع ، ويتكون الأنثيان والمبيض في هذه المنطقة بالضبط ، أي بين الصلب والترائب ، ثم ينزل الأنثيان تدريجياً ، حتى يصلا إلى كيس الصفن ، (خارج تجويف البطن) ، في أواخر الشهر السابع من الحمل ، بينما ينزل المبيض إلى حوض المرأة .. ومع هذا فإن تغذية الأنثيين والمبيض بالدماء والأعصاب واللمف تبقى من حيث أصلها ، أي من بين الصلب والترائب ، فشريان الأنثيين، أو المبيض يأتي من الشريان الأبهر ، (الأورطي البطني) ، من بين الصلب والترائب ، كما أن وريد الأنثيين يصب في نفس المنطقة ، أي بين الصلب والترائب ، كما أن الأعصاب المغذية للأنثيين ، أو للمبيض تأتي من المجموعة العصبية الموجودة تحت المعدة ، من بين الصلب والترائب ، وكذلك الأوعية اللمفاوية تصب في نفس المنطقة ، أي بين الصلب. فهل يبقى بعد كل هذا شك أن الأنثيين أو المبيض إنما تأخذ تغذيتها ودماءها وأعصابها من بين الصلب والترائب ؟!

فالحيوانات المنوية لدى الرجل ، أو البويضة لدى المرأة ، إنما تستقي مواد تكوينها من بين الصلب والترائب ، كما أن منشأها ومبدأها هو من بين الصلب والترائب .

١ــ وقد اختلف المفسرون في معنى الترائب أيما اختلاف ، أنظر تفسير الطبري (٢٤/٣٥٤-٣٥٦) ، الإمام القرطبي في تفسيره (١٦/٣٤٣ ، ٢٠/٥) ، والحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/٣٧٥) .

والآية الكريمة إعجاز كامل ، حيث تقول :

((مِن بَيْنِ الصّلْبِ وَالتّرَآئِبِ))، ولم تقل من الصلب والترائب ، فكلمة " بَيْنِ " ليست بلاغية فحسب ، وإنما تعطي الدقة العلمية المتناهية.

والعلم الحديث يقرر أن الماء الذي لا يقذف ولا يندفع وإنما يسيل.. إنما هو إفرازات المهبل وغدد "بارثولين" المتصلة به ، وأن هذه الإفرازات ليس لها دخل في تكوين الجنين ، وإنما وظيفتها ترطيب المهبل .

ولكن العلم الحديث يكشف شيئا مذهلاً ؛ أن الحيوانات المنوية يحملها ماء دافق هو ماء المني ، كذلك البويضة في المبيض تكون في حويصلة " جراف " محاطة بالماء ، فإذا انفجرت الحويصلة تدفق الماء ، وتلقفت أهداب البوق البويضة ، لتدخلها إلى قناة الرحم ، حيث تلتقي بالحيوان المنوي لتكون النطفة الأمشاج..

هذا الماء يحمل البويضة تماماً كما يحمل ماء الرجل الحيوانات المنوية ، كلاهما يتدفق ، وكلاهما يخرج من بين الصلب والترائب : من الغدة التناسلية ؛ الأنثيين ، أو المبيض .

وتتضح مرة أخرى معاني الآية الكريمة في إعجازها العلمي الرائع :

ماء دافق من الأنثيين يحمل الحيوانات المنوية ، وماء دافق من حويصلة " جراف " بالمبيض يحمل البويضة " .)[1]. إنتهى .

(وأما مسألة تحديد جنس الجنين ، ف"من المقرر علميّاً أن جنس المولود

١ــ خلق الإنسان بين الطب والقرآن(ص/١١٤-١٢٤) .

يتحدد في اللحظة الأولى التي يلتقي فيها الحيوان المنوي بالبويضة فيلقحها ، فإذا ما التقى حيوان منوي يحمل شارة الذكورة " Y " بالبويضة ، فإن الجنين سيكون ذكراً بإذن الله ، أما إذا كان الحيوان المنوي الذي سيلقح البويضة يحمل شارة الأنوثة : فإن الجنين سيكون أنثى بإذن الله.

إذن الحيوان المنوي ، أو نطفة الرجل هي التي تحدد نوعية الجنين ذكراً أم أنثى .

((وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى . مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى))[١]

والنطفة التي تُمنى هي نطفة الرجل بلا ريب .

ويقول تعالى أيضاً ((أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ (أي : المني) الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى))[٢] " .)[٣]. إنتهى .

ويبقى السؤال ماذا يحدد تخصيب البويضة بِشارةِ الذكورة ، أو بِشارةِ الأنوثة ؟

هل يتعلق الأمر بالحيامن فقط ، كما يظهر من تعبير الدكتور المحترم ، أم الذي يحدده البُويضة نفسها ، فيشترك كذلك الأبوان في هذه العملية أيضاً ؟

نقول : والأخير الأرجح ،فلعلّ فيها ما يجذب تلك الشارة ، أو هذه ، ولا تكون العملية منحصرة بالحيامن وحيويتها وسرعتها فقط .

١ــ النجم/ ٤٥ ، ٤٦ .

٢ــ القيامة / ٣٦ ، ٤٠ .

٣ ــ خلق الإنسان بين الطب والقرآن (ص ٢٩٧ ، ٢٩٨) .

لا بل قد يكون لتأثير الجو الحامضي لإفرازات المهبل ، على الجو القاعدي للسائل المنوي الذي فيه حيامن الذكر ، الأثر البالغ في تحديد الحيمن السابق لتلقيح البويضة ، ولعلّ هذا يتحدد بعوامل كثيرة .

نقول هذا لأن تعبير "النطفة" جاء في الآية المباركة ، والدكتور البارّ هو الذي فسرها بماء الرجل ، ولو تمعّنا لرأينا أنّ "النطفة" أول مراحل تكوّن الجنين، ويكون ذلك بعد اتصال الحيمن بالبويضة ، لا قبلها ، ويظهر هذا عند التمعن في قوله تعالى :

"وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مّن طِينٍ، ثُمّ جَعَلْنَاهُ **نُطْفَةً** فِي قَرَارٍ مّكِينٍ، ثُمّ خَلَقْنَا **النّطْفَةَ عَلَقَةً**..... "[1]

فالنطفة في قرار مكين لم تكن كذلك إلا بعد الإتصال والإستقرار في الرحم ، وهو القرار المكين ،وخاصة هو بنفسه أي الدكتور البار قال : " **من المقرر علمياً أن جنس المولود يتحدد في اللحظة الأولى التي يلتقي فيها الحيوان المنوي بالبويضة فيلقحها** " ، وهو بنفسه قد عبّر عن الماء الدافق بأنه ماء الرجل وبويضة المرأة ، بشرحه المفيد ، ونظره الثاقب ، وبيانه السليم ، وهو ـــ أي الماء الدافق ـــ أولى أن يكون مختصاً بالرجل دونها بحسب النظرة البدوية .

ومع هذا الإخبار والتفصيل في القران الكريم ، عن تكّون الإنسان بذكره وأنثاه ،أخبرهم الله تعالى فيه من أنه تعالى جعل الزوجية ليس للإنسان فحسب ، بل جعلها لكل موجود .

١ـ سورة المؤمنون : ١٢-١٤.

قال تعالى : ((وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ...))[١] .

بعد أن أخبرهم وبعدة مناسبات من أن الثمرات كذلك من زوجين .

قال تعالى : ((وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[٢].

وبذلك رسم لهم الصورة الصحيحة لعملية الخلق .

((وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا...))[٣]

فهنا وضّح من أنّ نطفة الذكر والأنثى واحدة ، يتم تشخيصها بعد الخلق...

بل أخبر وهو العليم الخبير :

((أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى))[٤]

نطفة واحدة ، ثم علقة واحدة في بطنٍ واحد ، فخلق وسوى ، وقد جعل من هذا الخلق بعد التسوية كلًّا من الزوجين الذكر والأنثى على حدٍّ سواء .

فلا فرق من حيث التكوين الأولي ، بل بعد ذلك بصفات معينة ، هذه هي

١ــ الذاريات / ٤٩ .

٢ــ الرعد / ٣ .

٣ــ فاطر / ١١ .

٤ــالقيامة / ٣٧ـ٤٠ .

خلقة الله تعالى للذكر والأنثى .

ثم بين لهم مقام المرأة بجميع مراحلها .

كأنثى ، كإنسانة في أي مراحل من حياتها ، طفلة ، ويافعة... ،أو تحمل أي علاقة نسبية ، كأم ، وكبنت ، أوسببية كزوجةٍ مثلاً .

هذه هيَ إشارات الصورة الأولى التي رسمها القران الكريم للمجتمعات ككل ، وعلاقة بعضها ببعض ، ولكلٍّ حديث يأتي في محله .

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ))[1] .

فالشعوب والقبائل متكونة من أسر اجتمعت فكونتها ، فهي تكونت من أسر ، والأسر كونها اجتماع أسرة لأسرة ، وانضمام البعض للبعض الآخر ، وكل أسرة من أبناء وبنين ، وأساس ذلك الأب والأم ، أي طرفي المعادلة الحقيقية الذكر والأنثى .

وصرّح أكثر في آيات أخر فبين أن الإختبار الإلهي في هذه الحياة يشمل الإثنين ، لا خصوصية للرجل في ذلك كله :

قال تعالى : ((فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ....))[2]

وقال : ((وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ

١_الحجرات / ١٣ .

٢_ آل عمران / ١٩٥ .

يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا))[١]

وقال : ((مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ))[٢]

وهنا ذكر السيئة فلم يذكر التفصيل للذي يعمل السيئة ، وكأنه لأنه ذكره في الجملة البعدية ، ولأنه يشجع ويريد ظهور العمل الصالح منهما ، من الذكر والأنثى ليبشرهم بما أعد لهما من النعيم المقيم .

والأحكام تذكر عموماً ، وتشمل الجميع .

وهذا الأسلوب لذكر أحد الطرفين ، وعدم ذكر الآخر أتى في القران الكريم ، قال تعالى :

((إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ))[٣]

فكأنه قال لجميع ذوي الألباب من الذكور والإناث .

ويقول تعالى : ((يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ...))

التي تتصدر كثيراً من آيات الله في ثنايا القران العظيم ، فهي خطاب لكل مؤمن ، سواء أكان ذكراً أم أنثى .

١_ النساء / ١٢٤ .

٢_ غافر / ٤٠ .

٣_ آل عمران / ١٩٠ .

الفصل الثالث

((لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ))[1]

الولادة الأولى الداخلية

في حياة الأنثى حقيقة لا مفرَّ منها ، وما هي إلا العادة الشهرية ، ولا يمكن الفرار منها ، ولا أن نجعلها وراء ظهورنا ، أو أن نغضَّ الطرف عنها ،فهي موجودة في حياة كلِّ أنثى ، إلا النادر القليل ، لِمرض أو لعاهة ، بصورة عامة ، وهي الدلالة الواضحة على صحتها وحيويتها ، وأساس الحياة ، وديمومتها ، إذ أنها كما يعلم حتى الجهال من الناس ، أنها ترتبط ارتباطاً كلياً بالحمل ، ثم الرضاعة .

والحمل ، هو الوظيفة الأساسية للأنثى لاستمرار الحياة ، شاء مَن شاء ، أم أبى .

ولذا بُنيَ جسمُها، بطريقةٍ تختلف اختلافاً شاسعاً عن جسم شقيقها الرجل.

فجسم الأنثى ، بُنيَ بناءاً خاصاً ، لاستقبال ما سيحتضنه في المستقبل ، لديمومة الحياة . فالحوض مختلف ، والصدر يختلف ، وحتى العضلات وتقسيمها يختلف ، وتبعاً لهذا ، بدت عليها الليونة البدنية ، لحفظ النوع ، وهيَ لا تخفى على أحد .

١ــ سورة التين /٤.

وللتناسق الكوني في الخلقة ، لابد من اختلاف نفسيّة الأنثى ، عن نفسيّة الذكر ، وبدأت الفوارق ، إن شئنا هذا ، أو أبيناه .

وهو الذي انتبه له الإسلام ، فأسّس شريعته متناسقة مع هذا البناء الجسدي والروحي ، لكلٍّ مِن الذكر ، والأنثى .

فكلّف الرجل بتكليفات أخر ، مقابل هذه التكليفات الملقاة على عاتقها تَكْويناً لحفظ النوع ، الذي هو الأساس ، والتي تساعد المرأة على الإستقرار ، لاستقبال جيلٍ جديدٍ ، وهيَ الوظيفة الأساسية للمرأة ، كما هو الواقع الذي لا يُمكن تغييره .

وهذا البناء الإجتماعي بناء مترابط متماسكٌ ، لا يمكن فصل بعضه عن البعض الآخر ، بهندسة عجيبة ، تُبهر المتمعّن فيها ، وتُلفت أنظار البعيد عنها .

وبناءاً على الذي ذُكِرَ ،فإن الأنثيستمر بتغييرات ماديّة جسدية كلّ شهر ، فيها تتكون البويضة ، التي ربما ستكون في المستقبل القريب إنساناً ذكراً كان أو أنثى ، يشغل هذه الأرض ، ليكون من المؤثرين بها في الظاهر ، أو في العمق ، وهي ولادة داخلية لابدّ منها كل شهر .

وهذه المواد الكيمياوية ، المحيطة والمكتنفة بهذه البويضة ، لها أثرها على المزاج العام للمرأة ، فتشعر بالتعب والجهد ، وليس هذا فحسب ، بل مع تعبها وجهدها تحدث تقلبات مزاجية ، ونفسية مختلفة ، بسبب الهرمونات الجسمية ، سواء تلك التي في المبيض ، أو في بقية أجزاء جسدها .

ومن هنا أمر الله تعالى بالإبتعاد عن النساء بالمحيض ، لا لأنها نجسة ، أو قذرة ، أو لِنقصٍفيها ، كما تخيَّلت بعض الشرائع السابقة ، ولكن لأنّه يؤذيها ذلك،

وربما يؤذيه ، لذا قال تعالى : ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ...))[1]

فيحتمل أن يكون لكلا الطرفين ، وخاصة إنَّ الخطاب لهم .

وليعلم من أن هذا الإبتعادَ جسديٌّ خاص ، وليس ابتعاداً حقيقياً .

فلسعادتها ، ولسعادة الزوج والولد ، لابدَّ من الرعاية التامة ، لهذا المخلوق الرقيق ، الضعيف ، الضروري للحياة ، وقوامها ، واستمرارها ، ولأجل سعادتهم جميعاً، سُنَّتِ القوانين ، وشرِّعت ، مع الرقابة الشديدة ، الداخلية ، والخارجية ، الدنيوية ، والأخروية .

البرزخ بين الولادة الأولى والولادة الثانية

وهي التي نعني بها فترة الحمل .

ويعلم الجميع تقلبات مزاج الأنثى في هذه الفترة ، ومدى عنائها .

فما يصطلح عليه ب"الوحم" يكون من بوادره ، ويصيب هذا أغلب النساء، وإن كان اختلاف هذا الأمر شدةً ، وضعفاً من امرأة لأخرى ، بل من حملٍ ، لحمل .

ويعلم الجميع ما فيه من تعكّرٍ للمزاج ، وانقلابٍ للأحوال .

ففيها تحدث تغيرات نفسية كبيرة ، ناشئة من اضطراب في كثير من هرمونات الجسم ، فضلاً عن التغيرات الظاهرية ، فالتغير قد يصيب حتى ملامح الوجه .

١ــ البقرة / ٢٢٢ .

وتتراوح الإنفعالات الداخلية ، وتبعاً لها الخارجية بين إمرأة وأخرى ، حتى تصل إلى درجة البكاء للرقة العاطفية التي تصيبها من أدنى معوق ، أو مؤثر ، وقد تصاب بالغضب والإنزعاج ، من أمورٍ لم تكن تلتفت إليها فيما سبق.

المهم أنّ حالها يكون غير مستقرٍ ، وأشدّه يكون في الثلث الأول من الحمل .

أما في الثلث الثاني فيختلف الحال ، إذ تبدأ بالهدوء والراحة ، والإستقرار .

واما في أواخر فترة الحمل ، فتبدأ بالتهيؤ نفسياً، لاستقبال الكائن البشري الجديد ، ولكنها تبقى مضطربةً ، من جهة الخوف من الولادة ، وعلى نفسها ، وجنينها ، فهي بحاجةٍ ماسَّةٍ للمساندة ، والإعتناء ، وإظهار الحبّ ، لها والعاطفةحتى تكون مستقرة حالتها ، عند الولادة ، لكي يقلّ خطر الإجهاض،و عسر الولادة ،أو الولادة غير الطبيعية .

فلاحظ أن التغيرات الهرمونية ، والتغيرات الفيزيائية مع تغير في شكل الجسم ، ووزنه ، للحفاظ على الجنين ، ولعوامل أخر ...ناهيك عن التغيرات البيولوجية ، ستكون المرأة حينئذ بهذا عرضة لعوارض خطيرة ، يعرفها ذووا الإختصاص .

هذه حالتها ، فيما سميّناه البرزخ بين الولادتين .

الولادة الثانية

وعندك حساب ما يحدث عند المخاض ، وعند الولادة ، وبعدها بأيام وأسابيع ، من ضعف الجسم ، وإرهاقٍ ، وتعبٍ ، وجهد ، وإن كان هذا كله يخفُّ برضعةٍ واحدة للطفل من ثدي أمّه .

ولا نتعرض لمقدار حاجة الطفل الرضيع لصدر الأمّ، لفترةٍ تصل إلى سنتين، التي أوصى بها الشرع ، وعمل بها العرف ،ناهيك عن تأكيد الأطباء اليوم ، على أهمية حليب الأم ، في تلك الفترة .

النتيجة

ما أروع قول أمير المؤمنين وسيد الوصيين عليه السلام، ابن الإسلام البار، وربيب النبي المختار صلى الله عليه وآله وسلم: ((المرأةُ ريحانةٌ ، وليستْ قهرمانة)) .

ولنسبر هذه المقالة قليلاً :

جاء في لسان العرب : (الريحان إما أن يُقصد به كلَّ بقلٍ طيّب الريح ، والجمع رياحين ؛ وقيل أطراف كل بقلة طيبة الريح ، إذا خرج عليها أوائل النور، والريحانة الطاقة من الريحان .

وقال الأزهري : الريحان اسم جامع للرياحين الطيبة الريح ، والطاقة الواحدة : ريحانة .) .

وجاء في تاج العروس :

(الريحان نبت طيب الرائحة ، من أنواع المشموم ، واحدته ريحانة .) إنتهى.

فأما على العموم كما جاء باللسان ، أو على الخصوص كما جاء في تاج العروس .

وعلى الخصوص فهو ما يسمى بالريحان ، أو بإضافة الملكي إليه صفة ، أوبالحبق .

نبات ذو عطرٍ زكي مميّز ، أكثر ما تستعمل أوراقه .

له ألوان متنوعة مثل الأخضر والأرجواني ، وله أشكال تتفاوت بالطول والقصر ، وطعمه مختلف فمن الكافوري ، إلى الحلو ، مروراً بريحان القرنفل ، فريحان القرفة .

يستعمل في صناعة العطور ، ولذا يطلق عليه في دول الخليج "المشموم" ، ويستعمل كذلك في الأكل ، وكدواء ، للشفاء من كثير من الأمراض الداخلية ، والعوارض الخارجية .

ويستعمله بعضهم للزينة .

ولذا يشتهر استعماله في دول كثيرة ، شرقية وغربية .

وفي النبوي :((مَن عُرض عليه ريحان فلا يرده ، فإنّهُ خفيف المحمل طيب الرائحة .)) .

وأمّا القهرمان :

جاء في لسان العرب : هو المسيطر الحفيظ على من تحت يديه ، فهو كالخازن، والحافظ ، لِما تحت يده ، والقائم بأمور الرجل . إنتهى .

وهذا يحتاج إلى شدّة ، وغلظة .

فماذا يعني هذا ؟

يعني أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يرد للمرأة أن تكون شديدةً غليظة ، كالخادم التابع ، والمنفّذ الطائع ، بل هي جوهرُ صفاتٍ أخر .

فالمرأة تحمل صفات الريحان ، في الرقّة واللين واللّطافة ، لا صفات القهرمان الخشنة القوية .

فالمرأة حقيقتها مصدر للجمال ، والراحة ، والشعور بالإطمئنان ، والإنتعاش ، كما أنها مصدر الرائحة الذكية والطيبة في البيت والأسرة ، وفي كثير من الأحيان تكون البلسم المشافي .

فمنظرٌ وجمال ، وعطرٌ زكي ، وراحةٌ ، ورقّةٌ ودلال ، وشفاء .

وليست بقهرمان ، وهو كما عرفتَ الذي يؤدي الخدمة والأشغالعن الرجل، فهي ليست بخادمة ، وذليلة .

كما أنَّ هناك إشارة لطيفة ، وَهيَ أنَّ لطافةَ المرأة تستدعي أنَّ مَن يتعاملُ معها ، عليه أن يتعامل معها بالرِّقَّة ، واللَّطافة ، واللِّين ، فهيَ ريحانة ، وليس من العقل بمكان أن يتعامل الإنسان مع الريحانبالقسوة ، والخشونة ، والغِلْظة .

وربما هنا نكتشف ما استغلَّه الرجل منها ، لكي يلقيَ على ظهرها ، كلَّ تلك الأثقال ، باسم المواساة عند قوم ، أو المساواة عند آخرين .

وما تساوتْ معه ، ولا وقفتْ عند خطِّ المواساة ، بل حملت حملها وحمله سويَّةً ، وهو جالس هناك ، ينظر إليها متعبةً ، مرهقة ، ربما شَغَلَتْهُ مفاتنها ، عن التفكير الجدّي بكرامتها ، وهو قد استراح من عبء عملٍ إضافيٍّ ، لا يريده .

كل ذلك العبء رفعه الإسلام عنها ، وألقاه على عاتق الرجل ، لكي تهنأ الزوجة ، بحياةٍ مطمئنة ، وسعيدة ، رعاية لها ، وحفظاً للأطفال من الضياع ، وكرامة للأسرة ، فرقيّ المجتمع .

الفصل الرابع

الزواج والأسرة

معنى قوله تعالى : ((هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ))[1]

المعنى دقيقٌ ورقيق ، فمن هذه الجهة التساوي التام ، ولابدّ للحياة من هذا، وإلّا لاختلت .

سِتْرُ عورة ، وسَدُّ حاجة ، وزينةٌ وحشمة ، وتكاملٌ وتجانس ، كلها تنطوي تحت هذا اللفظ البديع .

بهذا وصف القران الكريم هذه العلاقة العالمية الشاملة ، التي لابد منها لاستمرارية الحياة .

تشبيه حسيٌّ بديع ، وعقلي عميق ، فما أروع هذا التناسق !

١) ، ٢) : فبالإضافة إلى أنه لا فرق بين الزوج والزوجة هنا ، وكما أن اللباس ضروري للإنسان بذكره وأنثاه ، فكلا الزوجين ضروري للآخر كذلك .

٣) : وإذا أحببنا أن نرى الصورة من زاويةٍ أخرى ، فسنرى جمالاً آخر ، فكما أن الرجل و المرأة ، كُلًّا منهما ينتقي ثيابه ، ويختار ، فعليهِ لابدّ له إذا أراد أن يتزوج ، مِن حُسن الإختيار .

فكما عليهما أن ينتقيا اللِّباس المناسب ، كذلك عليهما أن ينتقيا الزوج المناسب .

١ــ البقرة / ١٨٧ .

٤) : فيغطّي أحدُهما سوءة الآخر ، وكأنَّ الإنسان الأعزب ظاهر العورة ، والعورة لابدّ لها من أن تُستر ، فعليه لابدّ للإنسان من الزواج . فما أروع هذا التلميح بضرورة الزواج .

٥) : بل اللباس يستر كل سوءة ، فعلى الشريك أن يستر كلَّ سوءات الشريك الآخر .

٦ : وكما أنّ اللباس يحافظ على الجسد ، فعليه أن يحافظ على الآخر .

٧) : وكما يشتمل اللباس على المرء ، فكل واحد محيطٌ ومشتمل على صاحبه ، فهو أقرب شيءٍ له .

٨) : وكذلك لابدّ للعاقل من أن يكون لباسه نظيفاً ، فعليه ، لابدّ لهما من أن يكونا نظيفين دائماً ، ولابدّ لهما من الإلتفات لذلك ، باستمرار ، حتّى لا يتسخا ، بقاذورات المجتمع وأوحاله .

وإذا أصيبا بشيءٍ من ذلك ، فما عليهما إلا أن يغسلاه سريعاً ، كي يبديا بالصورة المناسبة .

فما أبدع هذا التآزر ، والتكاتف ، والتلازم .

كلُّ هذه المعاني الجميلة انطوت في هذا الكلام البديع ، المختصر .

وهذه هي الأسرة في الإسلام .

وهاهيَ الزوجة :

وترتبط المرأة بالرجل لكي تكون زوجته بعقد ، ويسمى بعقد النكاح ، وهذا العقد الذي يظهر من اسمه ، أنه مؤلف من إيجاب وقبول ، لأن كلَّ عقد كذلك .

وفي جميع الأحيان إلا ما ندر ، يصدر من المرأة ، الإيجاب ، و من الرجل يأتي القبول ، وعند كثير من الفقهاء إن لم يكن كلهم صحة العكس كذلك ، أي صدور الإيجاب من الرجل ، والقبول من المرأة .[١]

وهذا الذي نراه ، وهو مجرد لفظٍ ، يصدر من الطرفين ، وربما يحسبه بعضهم هيّناً ، يسميه الباري عزّ وجلّ ، بالميثاق الغليظ .

قال تعالى ((...وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا))[٢] .

ومقابل تمكينها مِن نفسها ، وَضَعَ الشارع المقدس أمراً في أغلب الأحيان يكون ماديّاً يسمى بالمهر ، وهو الذي ذكره تعالى بقوله :

((وَآتُواْ النِّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا))[٣]

وتَرَكَ تحديده لها ، وهي التي تملكه .

فكيف ستستمر الحياة ؟!

لابدَّ لكلّ مؤسسة من قوانين وضوابط ، وإلا لاختلت وتهدّمت ، فما هي ضوابط هذه المؤسسة ، التي هي أساس المجتمعات ؟!

بما أنا عرفنا من أن المرأة لها صفاتها الخاصة بها ، والتي أشرنا إليها إجمالاً ، فيما مرَّ من حديثنا ، فعليه لابدّ أن يكون دورها ووظيفتها متناغماً مع هذا كله .

١ــ راجع الرسائل العملية باب النكاح .

٢ــ النساء / ٢٠ .

٣ــ النساء / ٤ .

فحياة الأنثى مبثوثة ما بين تلك الولادات ، التي أشرنا إليها ، والبرزخ الذي في البين ، فلابدَّ ممّن يقوم بالشؤون الأخر لهذه الحياة ، لكي تستمر من دون أن نحمّل هذه المسكينة ، التي حملت الحياة في أحشائها ، وعلى أكتافها ، مسؤولياتٍ أخر .

وبما إن الذكر خالٍ من ذلك كله ، كان من الإنصاف والعدل والمروءة أنْ يحملها دونها ، لكي يكون شريكها في تكوين الحياة المستقرة له ، ولها ، وللأجيال القادمة .

إذ تلك الصفاتُ تقربها إلى الدِّعَة ، والراحة أكثر ، لتوفير الجو الملائم لها ، لشقِّ غمار هذه الحياة الصعبة ، فعليه ستكون أقرب للبقاء في البيت ، للمحافظة عليها ، دون أن يُؤثر كل ما يجري في الخارج على سلامتها ، ورقّتها .

وعلى الرجل الذي أُعطيَ العضلات ، أن يذهب إلى خارج المنزل ليهيأ لنفسه ، ولها ، وللضيف العزيز المرتقب ،أسباب العيش الكريم .

لا أن نكلِّفَها أن تفعل ذلك ، ونلقي عليها ثقلاً جديداً ، بالإضافة لِكلِّ ما مرَّ ، ويبقى الرجل من دون أيِّ مسؤولية تُذْكَر .

وبهذا الشكل الذي قدّمناهُ ، يتساوى الميزان ، ويعتدل .

فعليه أن يكدح في الخارج ، وعليها أن تجاهد في الداخل .

ومِن هنا ، بدأ الإفتراق ، فكان ميدان المرأة ، ما كان وراء الباب ، بيتها ، وميدان الرجل ما قبل الباب ، في الخارج .

بهذا البيان تبين أن المرأة والرجل لكل واحد كيانه الإنساني الخاص به .

ومن الأمور الصعبة جداً على الفرد الأعزب ، ذكراً كان أو أنثى ، أن يغيّر من القالب الذي تقولب به فترة طويلة .

وأن تتشابك حياته مع حياة شخصٍ آخر ، وتتداخل ، ولكنها سنّة الحياة .

ولابد أن يكون هذا التداخل والتشابك مبنياً على أسس قويمة ، وإلّا فسوف ينهار .

ومن أروع هذه الأسس هذه الفطرة التي في داخل الإنسان نفسه التي جعلها الله تعالى في كل فرد لاستمرارية الحياة .

ومن أهمها بل هي المرتكز الأساس هذه المودة التي جعلها الله تعالى من آياته وأشار إليها حيث قال تعالى في محكم كتابه :

((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)) [١].

فهذه المودة والرحمة هي أساس الأسرة ، وهي سر ديمومة المجتمعات.

ومن أدواتها الفعالة هذا الجانب الجنسي ، الذي أنشأه الله تعالى ليوطد العلاقة ، والمحبة بين هذين القطبين ، ويعمقهما ، فتأنس إليه ، ويأنس إليها .

ويبقى سؤال قد حيّر كثيرين :

لماذا أعطيَ الرجل المسؤولية على الأسرة ؟!

المقدمة الأولى : لابد لكل مؤسسة من رئيس ، يدير شؤونها ، وعليه المسؤولية الأولى في المحافظة عليها ، لاستمراريتها في البقاء ، حتى تؤتي ثمارها ،

١ــ الروم: ٢١.

والأسرة ، أهم مؤسسات الحياة .

المقدمة الثانية : ولا يمكن أن تسير السفينة بربانين.

المقدمة الثالثة :مع تلك الصفات ، وهذه الحياة ، هل نضيف للمرأة ثقلاً جديداً ، ونضعه على عاتقها ، أم نخفف عنها ، ونحيطها عناية ؟

المقدمة الثالثة : فإذا تمَّ ما سبق ، وخرج الرجل إلى السوق ، وكدّ واجتهد لكي يوفر العيش الكريم له ، ولأفراد بيته ، سيكون الرجل أكثر اختلاطاً من المرأة في شؤون الحياة المختلفة .

فمن يكون هنا المسؤول الأول ، المرأة أم الرجل ؟!

وهنا نتكلم عن الشئ العام ، واغلب الأفراد ، لا المصاديق النادرة .

بطبيعة الحال سنضع المسؤولية على الرجل .

لماذا ؟!

لأنّ الشخص المسؤول ، عليه أن يُحافظ على الأسرة ، ويُهيّأ لها المسكن اللائق بها ، ويدير شؤونها ، ويكدح لها ، بأن يخرج لكي يعمل ، ليجلب الطعام والشراب لها ، وأن يحافظ على هذه الأمانة الملقاة على عاتقه .

وهذا كله لا يمكن أن يتم من دون أن تقع مسؤولية الجميع عليه ، وهذه الرعاية ، لا يمكن أن تكون تامة ، إذا أردناها أن تكون تامّة ، ما لم يُعط الرجل نوعاً من السيطرة ، ولا يمكن أن يسيطر على الأمور ويسيّرها على النهج السوي، إلا أن يكون قائماً عليها ، بالقسط والإحسان .

وهذا ما سنّه الإسلام ، وقد عرّف هذه الحالة بالقوامة .

فهي إذنْ مسؤولية كبيرة ، ملقاة على عاتق الرجل ، وقد لا تكون تشريفاً .

وقد أعطيَ هذا الأمر الخطير ، بيد الرجل للمحافظة على بقاء التوازن ، وعدم الإختلال .

وخوفاً من الإنحراف والإنزلاق ، والطغيان ، حفّه بقوانين ، وجاء بتشريعات عدّة لضمان ذلك كله :

أولاً : ألقى المسؤولية المالية للأسرة بتمامها على الرجل .

فعلى الرجل إعالة زوجته وابنائه ، واللطيف هنا أنه عليه أن يعيلها وإن كانت غنية وثرية .

ومما جاء في القران الكريم :

((وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ))[١]

وقال تعالى :

((الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ))[٢]

ولأجل مراعاة قدرة الرجل ، ويتفاوت ذلك من حال ، إلى حال ، قال تعالى :

((لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا))[٣] .

١ــ البقرة / ٢٣٣ .

٢ــ النساء / ٣٤ .

٣ــ الطلاق / ٧ .

ويتبين ذلك بقوله تعالى : ((عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ)) [١]

وقال تعالى : ((أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ))[٢]

ثانياً : وبما أنّ المورد المالي له ثقلٌ كبير في الحياة ، فلربما يطغى الزوج أو يضيّق على اسرته ، وللمحافظة على الزوجة ، ولقرة عينها ، جاءت تشريعات أخر ، ليحفظ التوازن :

قال تعالى :((وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ))[٣] ، وقال : ((وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ))[٤]

فهنا استعمل على اختلاف الموارد الأمر والنهي ، ليطلب منه شرعاً ، ولينهاه كذلك ، حتى يتبين الحق لكل ذي عينين .

وإن كانت هذه الآية المباركة قد نزلت بسياق آيات الطلاق ، إلا أنه منها نستطيع أن نتبين الأمر كلياً ، وواضحاً ، فهذا الأمر مع طلاقها وفراقها ، فكيف مع بقائها ، واستقرارها ؟!

ثالثاً : بيان الأحكام عند الحالة الحادة التي فيها سيفترق الطرفان ، والتركيز عليها .

فهنا إذا كان الرجل يحب امرأته ، فستنعم بأمان معه ، ومثل هذا المحب لا

١_ البقرة / ٢٣٣ .

٢_ الطلاق / ٦ .

٣_ النساء / ١٩ ،

٤_ الطلاق / ٦ .

يحتاج إلى توصيات وتشريعات ، مباشرة .

وإذا جاءت عامة لكل الرجال فقد لا تؤثر أثرها في الرجل المسئ .

ولكنّ التشريعات لو صبّت على ذلك الذي يريد التخلص من زوجته ، ومن هذه العلاقة المتينة ، فالتوصيات إليه ستكون أبلغاَ ، وأثرها يكون أعمقاَ .

ولذا جاءت آيات النفقة ، وما يتعلق بها موجَّهة لِهذه الحالة ، لِتتبيَّنَمنها جميعُ الحالات ، بطريق الأولوية .

وربما نظراً لذلك جاءت هذه التشريعات في سورة الطلاق ، وبُيِّنَت كذلك في سورة البقرة ، عند التعرض أيضاً للطلاق وشؤونه .

ولنلاحظ آيات الطلاق مثلاً :

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَّ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهَّ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهَّ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ الله يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهَّ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهَّ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَّ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا

ذَلِكَ أَمْرُ اللهَّ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى

لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا

فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا

أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللهَّ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا)) .

ونشاهد في هذه الآيات المباركة أنه مع بيان الأحكام بأحسن وجه ، لكنّه يستعمل التهديد الأخروي ، غير المباشر ، وفي مراتٍ أخَرِ ، المباشر ، لكي يلتزم الطرفان بالحق ، والوقوف عند الحد الشرعي ، وعدم تجاوزه ، هذا بالإهمال مثلاً، وذلك بالتجاوز .

والله قد ذكرها واضحة لا لبس فيها إذ قال تعالى : ((الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى

النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ))

وقال تتمة للآية : ((فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ..))[1].

ولِصعوبة الموقف ، نشاهد أن آيات سورة الطلاق التي لا تتعدى الصفحتين ، والإثني عشر آية فقط ، فيها ذكر تقوى الله سبحانه خمس مرات :

في الآية الأولى : ((واتقوا الله ربكم))

وفي الآية الثانية ((ومن يتق الله يجعل له مخرجا))

وفي الآية الرابعة ((ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا))

وفي الآية الخامسة ((ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا))

وفي الآية العاشرة ((فاتقوا الله يا أولي الألباب ...))

ولم يكتف بهذا بل هدّد في الأثناء ، بتلك القرية التي عتت عن أمر ربها ، وبيّن شدّة العذاب وغلظته ، الذي وقع بهم .

وختم كلَّ ذلك ، لتقوّية التهديد وترسيخه ، بقوله جلَّ شأنه : من أنَّ الله تعالى ((..... قد أحاطَ بكلِّشيء علماً)) .

فتدبّر بعظيم آياته .

١ــ النساء / ٣٤ .

الفصل الخامس

الطَّلاق :

أسباب الطلاق ، نظريّاً ، وعمليّاً

هذه الكلمة الثقيلة ، التي نسأل الله تعالى أن يُجنِّب الأزواج عنها ، تكون في بعض الأحيان الدواء المناسب ، لأسرةٍ قد دمَّرها ما دمرها .

والمثل العربي يقول آخر الدواء الكي .

لكي لا يستمر تحطيم الرجل والمرأة في كثير من حالات الشقاق .

ويكون الطلاق مبنيّاً على أسباب عدّة يطول شرحها ، يتراكم بعضها فوق البعض الآخر ، حيث لا يُصلِحُ الأمرَبعد ذلك ، التنازلاتُ الكثيرة من الطرف الواحد ، أو من الطرفين ، ولا تفيد الكرامات ، ولا الإحسان ، وتبقى الحياة معلّقة على حافة السِّكّين ، التي ستقطع تلك الرابطة المتينة .

إذ يكون البقاء سبباً في فساد دين أحدهما أو كليهما ، أو في فساد دنياهم ودينهم .

أو قد يجد عيباً ، أو تجد فيه عيباً ، لا يمكن معه الاستمرار في الحياة الزوجية.

أو قد يجد ما لا يحبه في صاحبه أصلاً ، ولا يمكن أن يستمر .

ولِكثيرٍ من الدواعي التي لا يمكن معها لأحد الطرفين أن يستمر مع الآخر.

فأحسن من تدمير فردين من المجتمع ببطء، بل أسرة بكاملها ، وضياعها بالمشاكل ، وبالقيل والقال ، شرّع اللهُ الإفتراق ، عسى أن يجد كلّ واحد طريقاً آخراً ، يكمل به مشوار حياته بهدوء .

وإذا أردنا أن نطنب بعض الشيء في ذلك ، فنقول :

من أول الأمر :

١) : ابتلاء الرجل أو المرأة بأمراض تمنع الاتصال الطبيعي ، أو تكاد تعدمه :

وبعض تلك العيوب يكون الحق بالافتراق بالإشتراط ، وبعض بدونه ، بل يحق له ، أو لها الفسخ ، وتفصيل ذلك تجده في الكتب الفقهية :

منها ما قد يصيب الطرفين : الجنون ، البرص ، والجذام .

ومنها : العمى ، الشلل القرع ....الخ .

ومنها ما يختصّ بالنساء :

كالعفل : لحم يظهر في القبل وفيه رشح كالأدرة .

القَرَن : مثل العصب يظهر كقرن الشاة في المنطقة المعينة .

الرتْق : هو انسداد الطريق بغدة لحم ، أو عظم .

وهذه كلها تمنع الإتصال .

الإفضاء : اتصال المسلك الطبيعي ومسلك البول ، أو الغائط .

ومنها البخر : ويراد به هنا الرائحة الكريهة "النتن" في الهنّ .

ومنها ما يختص بالرجال :

الجب : مقطوع الذكروالأنثيين .

العِنّة : لا يستطيع الاتصال .

٢)أو وجود البرود الجنسي لأحد الطرفين ، الذي يقضّ مضجع الطرف الآخر .

٣) الإختلاف الكبير في المستوى المادي ، أو الثقافي ، أو الاجتماعي ، بحيث لا يستطيع أحد الزوجين ، أو كلاهما أن يتجاوزه .

٤): الخيانة الزوجية ، فيولد القلق النفسي الشديد ، والإرباك للطرف الآخر.

٥): الإدمان على المخدِّرات ، أو المسكرات ، أو حتى مثل القمار .

٦): النوازع النفسيّة والهوى ، والتقلُّبات في المزاج تكون شديدة في بعض الحالات ، ولا يُمكن ضبطها ، والحدّ من خطرها .

٧): تَدَخُّلُ بعض الآباء والأمهات ، في حياة الزوجين ، فيحدث الإرباك ، والإرتباك فيها ، إلى أن تصل الأمور إلى الطلاق .

٨): وأهمّ تلك العوامل وأخطرها ، سوءُ الخُلُق لأحد الأطراف ، الذي يكون منشأه أحد الأسباب السابقة ، أو لطبيعة التربية المتدنِّية ، أو لأي سبب آخر .

وربما توجد عوامل أخر ، هي مهمّة لأحد الطرفين ، أو كليهما ، تكون سبباً مباشراً في النفرة .

ولا يمكن تجاوزها إلا بالطلاق ، أو الفسخ للخلاص .

هذا مجمل الحديث حول الأسباب .

ومع هذا جُعلت أمور قبله ، وبعده ، لتحافظ على الأسرة من الانفراط .

فحفّه بمثل :أبغض الحلال إلى الله الطلاق .

بعض قوانين الطلاق

الطلاق إيقاعٌ ، من طرف واحد .

بيد الزوج ، ويمكن أن تكون الزوجة وكيلة في طلاق نفسها منه .

((وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً...))[١]

ورتبت قوانين عدة في حال الطلاق ، لأنّ له حالات مختلفة :

((وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِحَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ))[٢]

وقال في موضع ثانٍ : ((وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا))[٣]

((ومن هنا يظهر: ان في الآية تقديراً لطيفاً بحسب المعنى، والمعنى وبعولتهن أحقُّ بهن من غيرهم، ويحصل ذلك بالرد والرجوع في أيام العدة ، وهذه الأحقية إنما تتحقق في الرجعيِّات ، دون البائنات التي لا رجوع فيها،

١ــ سورة النساء / ١٣٠ .

٢ ــ سورة البقرة / ٢٤١ ، ٢٤٢ .

٣ــ البقرة / ٢٢٨ .

وهذه هي القرينة على أنّ الحكم مخصوص بالرجعيات ، لا أنَّ ضمير بعولتهن راجعٌ إلى بعض المطلقات ، بنحو الاستخدام ، أو ما أشبه ذلك، والآية خاصة بحكم المدخول بهنَّ، من ذوات الحيض ، غير الحوامل، وأمّا غير المدخول بها ، والصغيرة ، واليائسة ، والحامل فلِحكمِها آياتٌ أخر .)).[١]

١) في حال الطلاق مع عدم المباشرة ، وعدم ذكر مهر معين :

((لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ))[٢] .

٢) في حال الطلاق مع عدم المباشرة ، مع وجود مهر معين :

((وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِعُقْدَةُالنِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُلِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسَوُاالْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ))[٣] .

٣) وهي مطلَّقة مطلقاً ، خوفاً على هضم الحقوق :

((أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ))[٤]

٤) و للمرضع إذا طلقت :

١ــ السيد محمد حسين الطباطبائي / الميزان / في تفسير الآية .

٢ــ البقرة / آية ٢٣٦ .

٣ــ البقرة / آية ٢٣٧ .

٤ــ الطلاق / آية ٦ .

((فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ))[١] .

((وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللهَّ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ))[٢]

فهنا شرّع ، ولم يكتف بالتشريع ، وبيّن ، ولم يكتف بالتبيين ، بل هدد بالعذاب الأخروي ، فضلاً عن العذاب الدنيوي .

٥) التهديد الدنيوي ، والأخروي :

إن قصّر فيما يجب عليه ، كما رأينا ذلك واضحاً في آيات الطلاق ، التي مرت عليك قبل قليل .

٦) ستكسر شوكته وشكيمته ، إن استكبر وتجبّر :

الذي يقصّر في هذه المسؤولية ، أعني الحالة المادية ، أو المعاشرة بالمعروف ، فللحاكم الشرعي أن يتدخل ، بعد أن ترفع الزوجة الأمر إليه ، لأنها لا تستطيع أن تصبر ، وتستمر على هذا التقصير ، فالحاكم حينئذ يأمره أن يقوم بدوره بصورة صحيحة أو يطلقها ، وإذا امتنع من كلا الأمرين فالحاكم الشرعي يقوم بطلاقها ، مع طلبها ، حتى مع رفض الزوج أو إنكاره .

١ــ الطلاق / آية ٦ .

٢ــ البقرة / آية ٢٣٣ .

هذا إذا لم يرتدع بمثل هذه الآية العظيمة :

((وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُواْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ))[1]

فإنه سيرتكب الحرام ، ويركب الإثم ، وسيُجبر على طلاقها أخيراً .[2]

ولأجل زوايا وخفايا أخر قال تعالى في سورة النساء :

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا))[3]

((وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا))

((وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا))

وبهذا وأمثاله، حَصّن البيت الأسَري لِيحافظ على توازنه ، وثقله في هذه الأرض.

١ــ البقرة / ٢٣١ .

٢ــ وللخلاص من هذه المشاكل ، سنذكر ما بنظرنا ينفع في حل كثير من هذه القضايا العالقة قبل وقوعها، في نهاية الكتاب ، عسى أن يجعل دستوراً لمن يريد الزواج ، وخاصةً في الغرب ، في زمننا هذا ، بعد أن كثرت المشاكل ، لعدم فهم التشريع ، أو لعدم معرفته أصلاً .

٣ــ الآية : ١٩ .

الفصل السادس

محطات الحياة ، وحفظ الحقوق

مع مراعاة أطوار حياتها ، وتقلباتها :

فحقها محفوظ ومضمون لمن ألقى السمع وهو شهيد ، وهي :

ولنبدأ من حين تكَّون الإنسان :

١) : وهي نطفة :

لا يجوز إسقاطها منذ أن يتصل الحيمن بالبويضة ، ولذا الرأي الفقهي لجواز تركيب اللولب للمرأة كطريقة لمنع الحمل مبنيّ على هذه النقطة بالذات : هل إنّ اللولب يمنع اتصال الحيمن بالبويضة ، أم أنه لا يدع البويضة الملقحة أن تلتصق بجدار الرحم ؟

فالأول جائز والآخر ليس بجائز .

٢) : وهي جنين :

يجب الحفاظ على الجنين ذكراً كان أو أنثى ، ولا يجوز إسقاطه ، إلا بحالات استثنائية بيّنها الفقهاء .

٣) : وهي رضيع :

((وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ.....))[1]

١ــ البقرة / ٢٣٣ .

٤) وهي طفلة صغيرة :

عابهم على الوأد ، وقرّعهم عليه .

ثم حالات الحياة المختلفة :

١) في فترة الزواج الأولى : ((وَآتُواْ النِّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا))[١]

٢) فإذا صارت حاملاً : ((وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُن))[٢]

٣) وهي في حال الرضاعة :

((وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ))[٣] .

ثم أخبر ((.... وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ...)) أي وارث الأب وهو الولد الصغير أي على وليّه في ماله «مثل ذلك» .

٤) : فترة الحضانة : للزوجة الوالدة :

((وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوف)) ، كما مر عليك في الآية السابقة .

٥) : الحرية لها في اختيار حياتها بعد وفاة زوجها ، لا سامح الله .[٤]

١ــ النساء / آية ٤ .

٢ــ الطلاق / آية ٦ .

٣ــ البقرة / آية ٢٣٣ .

٤ــ وهذا من أروع ما أعطاها الإسلام ، أنظر لحال النساء قبل ذلك ، لتعلم السمو والرفعة ، والنقلة العظيمة التي نقل الإسلام المجتمع إليها .

((وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ))[١]

٦) ورتّب القوانين الدقيقة لذلك ، منذ اللمسات الأولى إذا صحّ التعبير لبناء الأسرة ، فقال تعالى : ((وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ))[٢]

٧) رتب القوانين حتى الافتراق بالموت :

((وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ))[٣]

٨) : حفظ حقها في الإرث ، بصورة عامة :

بيّن سبحانه أولاً وبصورة إجمالية أن لكلٍّ نصيباً في مسألة الإرث:

((لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا))[٤] .

١_ البقرة / آية ٢٣٤ .

٢_البقرة /٢٣٥ .

٣_ البقرة / ٢٤٠ .

٤_ النساء / ٧ .

٩) : وحفظ حقها كزوجة : في الإرث :

((وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ))[١]

وهذه التقسيمات مبنية على حسابات دقيقة في تركيبة المجتمع المسلم ، من حيث مسؤولية الإنفاق ، وما يترتب عليه ، من تفرعات إنسانية ، وما جاءت إعتباطاً .

ومن رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام

وهيَ من الشهرة بمكانٍ ، عندنا ، وقد شرحها كثير من العلماء ، والفضلاء، ذكر شروحَها صاحبُ"الذريعة"[٢] ، وموسوعةِ"مؤلفي الشيعة"[٣] .

وقد ذكرها فيمن ذكرها صاحب "الخصال"[٤] ، وقد روى قسماً كبيراً من هذا الحديث الشريف ، كذلك ، في كتابه العالي الصيت ، أعني كتاب"مَنْ لا يَحضرُهُ الفقيه"[٥]، بسندٍ آخر عن أبي حمزة ، و اعتمد عليه جملة من المشايخ العظام،

١ــ النساء / ١٢ .

٢ــ الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج٧ / ص٤٢ ، تأليف الشيخ آغا بزرگ الطهراني رحمة الله عليه .

٣ــ موسوعة مؤلفي الإمامية ج١ / ص٢٣٣ ،أصدر هذا الكتاب مجمّع الفكر الإسلامي ، في قم المقدسة .

٤ــ / الخصلة ٩٥١ / أبواب الخمسين وما فوقه ، الحقوق الخمسون التي كتب بها علي بن الحسين عليه السلام إلى بعض أصحابه / ص٥٦٤ ./ المؤلف : الشيخ الصدوق أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (ت ٣٨١ هـ) / وهو كتابٌ يشتمل على الأعداد والخصال المحمودة ، والمذمومة ، على حد قول مصنفه رحمه الله تعالى ، في مقدمته ، وهو عبارة عن مجموعة من رواياتٍ ، عن أهل بيت النبوة عليهم السلام، في ذلك .

٥ــ وهو أحد الكتب الأربعة المُعتَمد عليها ، في الفقه الإمامي .

لِقرائن كانت عندهم على صحة صدوره، ورواه ابن شعبة الحرّاني ، في كتابه "تحف العقول"[١].

وهيَ رسالة جامعة ، قد بيَّن فيها الإمامُعليٌّ بنُ الحُسينِ زينُ العابدين عليه أفضلُ السلام الحقوق التي على كلّ إنسان ، ذكراً كان أو أنثى ،تبدأ بحقوق الله تعالى في كل حركة ، أو حال ، ثم ما أوجب الله عزّ وجلّ عليه لِنفسِهِ، مِن قِرْنِهِ إلى قدَمِهِ، على اختلاف جوارحه ، ثم على أفعاله بعد جوارحه ، ثمَّ ما يخرج من الحقوق منه إلى غيره ، مِن ذوي الحقوق الواجبة عليه ، إلى أن يصل إلى حقوق ذوي الأرحام وهي كثيرة (متصلة بقدر اتصال الرحم في القرابة..) إلى أن يقول سلام الله عليه (وأوجَبَها عليكحقُّ أمِّك، ثمَّ حقُّ أبيك، ثم حق ولدك ، ثم حق أخيك، ثم الأقرب فالأقرب، والأولى فالأولى) ، بعد أن يذكر حق الزوجة.

ومجموع الحقوق فيها عبارة عن خمسين حقاً.

وبعد أن يذكرها إجمالاً ، يقول سلام الله عليه :

(فطوبى لِمَن أعانه الله على قضاء ما أوجب عليه من حقوقه ، ووفَّقه لذلك، وسدّده.) ، ثمَّ يبدأ بالتفصيل فيها ، فيقول في جملة ما يقول :

(وأمّا حقُّ الزوجة ، فأن تعلم أنّ الله عزّ وجلّ جعلها لك سكناً ، وأُنْساً ، فتعلم أنّ ذلك نعمة مِنَ الله عليك، فتكرمها ، وترفق بها ، وإن كان حقك عليها أوجب ، فإنَّ لها عليك أن ترحمها لأنّها أسيرك ، وتطعمها ، وتكسوها ، فإذا جَهِلتْ عفوتَ عنها، وأمّا حق...)).[٢]

---

١ ـ تحف العقول عن آل الرسول ﷺ/ تأليف . الشيخ أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني ، من علماء القرن الرابع الهجري، ص ٢٥٥ .

٢ ـ الفقيه / ج٢ / ٦٢١ .

١٠) :وكبنت : قال الله تعالى :

((فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ))[١]

وفي تلك الرسالة : ((وأما حقُّ ولدك[٢] فأن تعلم أنه منك ، ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره ، وأنك مسؤول عمَّا وليته من حُسْن الأدب ، والدلالة على ربِّه عز وجل، والمعونة له على طاعته، فاعمل في أمره عمل مَن يعلم أنه مثاب على الاحسان إليه ، معاقب على الإساءة إليه ..)).[٣]

١١) : وحتى كأخت : : ((يستفتونك قل اللهّ يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك))[٤]

وقال تعالى : ((وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُواْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ ..))[٥]

وفي رسالة الحقوق يقول عليه السلام :

((وأما حق أخيك فأن تعلم أنه يدك وعزُّك وقوّتك، فلا تتخذه سلاحا على معصية الله، ولا عدة لِلظلم لِخَلْقِ الله، ولا تدع نصرته على عدوه ،والنصيحة له ، فان أطاع الله ، وإلا فليكن الله أكرم عليك منه، ولا قوة إلا بالله..))[٦]

١_ النساء / ١١ .

٢_ ولا ننس من أنّ الولد يُطلق في لغة العرب على الذكر والأنثى .

٣_ الفقيه / ٦٢٢ .

٤_ النساء /١٧٦.

٥_ النساء / ١٢ .

٦_ الفقيه / ٦٢٢ .

١٢) : **وأما في كونها والدة** ، فلها منزلتها الخاصة التي جعلها الله ورسوله صلى الله عليه وآله لها ، وللوالد ، ما قد يفوق الأذهان :

(وبرُّ الوالدين ، وقاية مِنَ السُّخْط ، وصلة الأرحام مَنْسَأةٌ في العمر ، ومنماةٌ للعدد .) ، مِنَ الخطبة الكبرى للزهراء البتول عليها السلام، في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال : « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : يا رسول الله مَنْ أبِرُّ ؟ قال : أُمَّكَ ، قال : ثمّ مَنْ ؟ قال : أُمَّكَ ، قال : ثم مَنْ ؟ قال: أُمَّكَ ، قال : ثم مَنْ ؟ قال : أباك ».)[١]

وقد جاء عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « الجنة تحت أقدام الامهات »[٢] .

وقد بيّن الإمام الرضا عليه السلام الحكمة في هذا التبجيل والتقدير : ((حرّم الله عقوق الوالدين ، لما فيه من الخروج من التوفيق لطاعة الله عزّ وجلّ ، والتوقير للوالدين ، وتجنّب كفر النعمة ، وإبطال الشكر ، وما يدعو من ذلك إلى قلّة النسل وانقطاعه ، لما في العقوق من قلّة توقير الوالدين ، والعرفان بحقهما ، وقطع الأرحام ، والزهد من الوالدين في الولد ، وترك التربية بعلّة ترك الولد برّهما .))[٣] .

ومن رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام:

((وحق أمك أن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحدٌ أحدا، و أعطتك من

١ــ أُصول الكافي ٢ / ١٦٧ | ٩ باب البر بالوالدين .

٢ــ كنز العمال ١٦ / ٤٦١ | ٤٥٤٣٩ / المؤلف :علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي ، الشهير بالمتقي الهندي ، (المتوفى: ٩٧٥هـ) .

٣ــ البحار / ٧٤ / ٧٥ .

ثمرة قلبها مالا يعطي أحد أحدا، ووقتك بجميع جوارحها، ولم تبال أن تجوع وتطعمك، وتعطش وتسقيك، وتعرى وتكسوك، وتضحى وتظلك، وتهجر النوم لأجلك، ووقتك الحر والبرد لتكون لها ، فإنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله تعالى وتوفيقه،))[١]

وبعد رسالة الحقوق المباركة هذه ، نذكر ما ورد في القران الكريم من حقوقٍ للأم ، بتدرج ملحوظ ، وقد أخّرنا ذكرها لِما فيها من تفصيلٍ أكثر :

المقام الأول : يبدأ بالإنفاق العام ، وإن كان التقديم لهما :

قال تعالى : ((يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَّ بِهِ عَلِيمٌ))[٢]

أو يقول في حال الوصية :

((كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ))[٣]

المقام الثاني : ذكر أنه أخذ ميثاق بني إسرائيل بعد عبادة الله ، الإحسان إليهما .

((وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَّ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا

١ــ الفقيه / ٦٢١ .

٢ــ سورة البقرة / ٢١٥.

٣ــ سورة البقرة / ١٨٠.

الزَّكَاةَ ...))[١]

المقام الثالث : هنا كمرحلة أعلى يأمر بعبادة الله والإحسان إليهما ، فيأتي الإحسان بعد العبودية لله تعالى .

قال تعالى : ((واعبدوا اللهّ ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى))[٢]

المقام الرابع : ثم كمرحلة أخرى يذكر الأم ، وما عانته بصورة مختصرة ذات أبعاد إنسانية كثيرة :

((ووصّينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمّه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً))[٣].

المقام الخامس : أمر بعدم إطاعتهما في حال إذا جاهداك لتشرك بالله ، بعد تقديمه الوصية بالحسنى لهما ، حتى يحفظ كرامتهما عنده :

((وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ))[٤] .

المقام السادس والأخير : ثم يذكر الأمر تارةً أخرى ، ويوجب الشكر له ، وللوالدين ، ولكن كيف ؟! يضع هذا الأمر بكيفية ملفتة للنظر ، موجبة للتدبر ، يضعها في سورة لقمان ، ومن هو لقمان ؟ لقمان الحكيم ، صفته الحكمة ، فجعل هذا الأمر من الحكمة موضعاً ، وموعظة ، وبياناً على لسان حكيم قد اشتهر

١ــ سورة البقرة / ٨٣ .

٢ــ سورة النساء / ٣٦ .

٣ــ الأحقاف / ١٥ .

٤ــ العنكبوت / ٨ .

بالحكمة من خلقه :

((وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ))[١]

((وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ))[٢]

((وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ))[٣]

فبين بأعلى مراتب البيان من أن الشرك لظلم عظيم .

ومن عظمته أن الله الغفور الرحيم ذا الرحمة الواسعة يقول في آية أخرى((**إِنَّ اللهَّ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا))[٤]

وبين سبب ذلك بكونه افتراءا لإثمٍ عظيمٍ .

ولكن أنظر لمقام الأبوين :

هذا الظلم الكبير ، والإثم العظيم ، إذا جاهد الأبوان عليه ، لكي ترتكبه ، وجاهداك تعني أنهما بذلا أقصى ما يستطيعان لإرغامك على ارتكابه حتى

١_ لقمان / ١٣.

٢ _لقمان / ١٤.

٣_ لقمان / ١٥ .

٤_ النساء / ٤٨ .

بالضرب أو الإهانة أو المهاترة أو ... فَأَمَرَكَ الله تعالى بعدم إطاعتهما في ذلك ، ولكن يمكن أن يجر ذلك لعصيانهما في غير ذلك ، والجرأة عليهما ، لأنهما أصبحا في خانة الظلم ، والإثم العظيم ، قال الباري لا ..لا .. يا عبدي المؤمن أمرتك بعدم إطاعتهما بهذا فقط ، و لا يمتد ذلك لغيره ، بل عليك أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً ، ولكن عليك بإتباع سبيل المؤمنين .

فما أعظم مقام الأبوين عند الله ، ومقام الأم بالخصوص لأنه ركَّز عليها،كما رأيت !!!!!!

وفي الإرث قال تعالى : ((...وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ...)) ، يبين حقوقها مما ترك ولدها من مال ، بتفصيل دقيق .

وختاماً لمقطع ذوي الأرحام في تلك الرسالة العظيمة يقول عليه السلام :

((وحق أهل ملتك (بيتك عامة) إضمار السلامة والرحمة لهم، والرفق بمسيئهم، وتألفهم واستصلاحهم ، وشكر محسنهم ، وكفّ الأذى عنهم ، وتحب لهم ما تحب لنفسك ، وتكره لهم ما تكره لنفسك، وأن تكون شيوخهم بمنزله أبيك، وشبانهم بمنزلة إخوتك، وعجائزهم بمنزلة أمك، والصغار بمنزلة أولادك ...))[1]

١٣) : وللإستقلالية المالية قال تعالى : ((وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ)) .

١٤) : وتبعاً لتلك الاستقلالية فلها أن توصي بمالها حسب ما تشاء كالرجل : ((مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ))

١ــ ٥٧٠ . الفقيه / ٦٢٦ .

١٥) : ولعدم وقوع المجتمع بالأوساخ ، وأوحال الرذيلة ، وللحفاظ على سمعة نسائه ، ونظافتهن ، شدّد على أمر شهادة الزنا ، قال تعالى : ((وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً)) لماذا هذا التفصيل في جميع مراحل الحياة ، وهو من عجائب الأمور وغرائبها ، إذ يكفي أن يذكر حقها العام ، ولا يدخل بالتفصيل ؟!

ولكنَّه فصّل ، وبيّن ، لأمور قد لا ندركها كلها ، ولكن ، لعلَّ مِن أهمِّها ، قَلْعُ ما ترسَّب في الذهن من عادات الجاهلية الأولى ، بِإهانة المرأة ، وغمْط حقوقها ، مع حرص الذكور وهيمنتهم على الحياة ، وعدم رعايتهم لها على طول الخط .

هذا هو منهج الإسلام الناصع .

الفصل السابع

المثال الحي بياناً وإنساناً

وهذه المرة جاء بمثال حيوي ، ليحرك الشعور ، ويذهب بالكثير مما ترسّب في تلك السنين العجاف ، بعد أن لمزوا النبي ب"الأبتر" ، أي الذي لا عقب له ، لأن أولاده الذكور كانوا يموتون ، ولم يكن معه إلا بنت واحدة ، عاشت معه ، وبذلك عيّروه ، فردّ عليهم الصاع بصاعين ، وألجمهم ، وبهتهم عملياً ، وفكرياً.

إذ خاطب الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم :

((بسم الله الرحمن الرحيم إنَّا أعطيناك الكوثر)) ، أي إنا أعطيناك الخير الكثير ، وماهو هذا الخير الكثير النامي المتكاثر ؟

إنَّه الزهراء البتول .[1]

إنه أنثى .

هذا الذي يخجلون منه ، هاهو يتباهى به عليهم .

وفعلاً كان كذلك ، قدّم لهم هذا النموذج الحيّ الواعي ، ليقول لهم : إن الأنثى يمكن أن تكون بِعَمَلِها سبّاقةً للرجال ، متفوقة عليهم .

فهي من جهة أنثى بمعنى الكلمة ، ولكنها كوثرٌ فياض ، فهاهيَ تتسامى ، وتتسامى ، حتى وسمها أبوها صلى الله عليه وآله بِوسامٍ ما بعده وسام ، إذ نعتها

١ــ الذي يريد أن يتبحر في بعض مداليل هذه السورة المباركة فعليه بكتابنا " الكوثر " .

ب" أمِّ أبيها "[١].

فهيَ بنتٌ من الطراز الأول ، وبعد ذلك أصبحت زوجة لا تضاهيها زوجة، وأمّاً لم تلد النساء مثلها ، فاستحقت لكلِّ ذلك أن تصبح سيدة نساء العالمين ، بعلمها ، وعملها .

فقدّم النموذجَ الإنسانَ ، وقدّم البيان ، ليرسم الطريق الصحيح للناس كل الناس ، ذكرهم ، وأنثاهم :

فّهاهيّ الزَّهْراءُ فاطِمةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليها وأبيها وبعلها وبنيها.

فما أروعَالإسلام !

وما أعْمَقَ تربيةَ الإسلام !

وما أحْسَنَه !

فاطمةُ الزَّهْراءُ النّموذج

ولدت في السنة الخامسة للنبوة[٢] ، فإنّها أحد أهم ثمار الإسلام ، كما ألمحنا

١ــ من أراد الإطلاع على مداليل هذه الكلمة العظيمة ، فعليه بتحليلنا لها في خاتمة كتابنا الكوثر .

٢ــ جاء ذلك في الكافي إذ قال الكليني فيه : ولدت بعد النبوة بخمس سنين ، وبعد الإسراء بثلاث سنين، وقبض النبي ﷺ ولفاطمة عليها السلام يومئذٍ – ثماني عشرة سنة ، ج١ ، ص ٤٥٧ ، ح١٠ ، وقال ابن شهراشوب في المناقب ج٣ ، ص٣٥٧ : ولدت فاطمة عليها السلام بعد النبوة بخمس سنين، وبعد الإسراء بثلاث سنين في العشرين من جمادى الآخرة ، وأقامت مع أبيها بمكة ثماني سنين ثم هاجرت....الخ. ، و في البحار عن الإمام الباقر عليه السلام: ولدت فاطمة بنت محمد بعد مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين، وتوفيت ولها ثماني عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً ، ج ٩ / ص ٤٣/ ح ١٦ . وفي روضة الواعظين للنيسابوري: ولدت فاطمة عليها السلام بعد مبعث النبي بخمس سنين..الخ. ١٤٣ . وفي دلائل الإمامة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ولدت فاطمة عليها السلام في جمادى الآخرة العشرين منها سنة خمس وأربعين من مولد

إليك ، وكما فصَّلنا في كتابنا "الكوثر" ذلك ، واستدللنا عليه ، بما يزيل حتى الشك .

وحتى على توهم الرأي الآخر ، من أنها ولدت قبل البعثة الشريفة ، بخمس سنين[1] ، فالأمر لا يخرج عن هذا .

وتربّت في أولِ بيتٍ جُعِلَ للناس قدوةً ، وأُسوةً ، بيتِ أبيها مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله .

وبلغت من الكمال لدرجة أنّ أباها كان كلما دخل عليها استقبلها ، وأخذ بيدها وقبّلها ، وأجلسها مجلسه ، كما سيمر عليك روايةً .

وكلما غادر المدينة كانت آخر من يودعه ، ولّما يأتي فهي أول من يزوره ، يسلم عليها ثم ينصرف لشؤونه العامة أو الخاصة .

النبي ﷺ . وكذلك ذكر الطبرسي هذا في تاج المواليد ، ص٢١ ؛ والإربلي في كشف الغمة ج٢ ، ص٧٥؛ والشيخ الصدوق في الأمالي ٤٧٥ ، ح١ .

و قد جاء في إقبال الأعمال : قال الشيخ المفيد : في كتاب (حدائق الرياض) :يوم العشرين من جمادى الآخرة كان مولد السيدة فاطمة الزهراء ، سنة اثنتين من المبعث . وقد نقل قوله صاحب العدد القوية ص٢١٩ .

ولذا جاء في مصباح الكفعمي : ولدت في العشرين من جمادى الآخرة يوم الجمعة سنة اثنتين من المبعث، وقيل سنة خمسٍ من المبعث . ج٢ ، ص٥٩٧ ،

١ــ المشهور عند علماء المسلمين من غير الشيعة أنها ولدت قبل البعثة بخمس سنوات . وهاك أقوالهم: ١:أبو نعيم في معرفة الصحابي : إن فاطمة كانت أصغر بنات رسول الله سنّاً، ولدت وقريش تبني الكعبة. ٢: أبو الفرج في مقاتل الطالبيين : كان مولد فاطمة قبل النبوة وقريش حينئذ تبني الكعبة. ٣– ابن الأثير في (المختار من مناقب الأخيار). ٤: الطبري في (ذخائر العقبى). ٥: السيوطي في (الثغور الباسمة) ، ذكروا مثل قولهما . والوحيدُ منا الذي وافقهم ابنُ أبي الثلج البغدادي ، في تاريخ الأئمة .

نعم صاحب الاستيعاب ابن عبد البر ج٤ ، ص٣٤٧ ، و صاحب المستدرك الحاكم ،ج٣ ، ص١٦٧ ، وكلاهما من الطرف الآخر ، قالا إنها ولدت بعد سنة من البعثة .

ولذلك ترى أحاديثه حولها منبئة عمّا بلغته من إيمان ودرجة قرب من الله ورسوله .

وعليك بكتب السيرة ، وكتب الحديث عند المسلمين قاطبة ، على اختلاف مذاهبهم ، وتوجهاتهم ، في شأنها ، ترى نصاعة ذلك ، ووضوحه .

وعَنْ أَنَس بن مالك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

(حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ .)[١] .

وقد صحّ في السيرة ، وفي سير أعلام النبلاء ، وسنن الترمذي ، عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ رَبِيبِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

(لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[٢]

فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، فَدَعَا فَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا، فَجَلَّلَهُمْ بِكِسَاءٍ، وَعَلِيٌّ خَلْفَ ظَهْرِهِ ، فَجَلَّلَهُ بِكِسَاءٍ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا ، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: وَأَنَا مَعَهُمْ يَا نَبِيَّ اللهِ؟ قَالَ : أَنْتِ عَلَى مَكَانِكِ ، وَأَنْتِ عَلَى خَيْرٍ .)[٣]

١ــ أخرجه الترمذي في سننه .

٢ــ سورة الأحزاب / ٣٣ .

٣ــ مسند أحمد بن حنبل – ٦ / ٢٩٢، طبعة : بيروت .

وما أكثر المصادر التي تصرح بكون هؤلاء الخمسة هم أهل البيت عليهم السلام ، أنظر : أحمد بن حنبل في " المسند " (٦ / ٢٩٢) ؛ النسائي في " السنن الكبرى " ٥ / ١٠٧) ح / ٨٣٩٩ ؛ ابن جرير في

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لِعَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ:

(أَنَا حَرْبٌ لِمَنْ حَارَبْتُمْ، وَسِلْمٌ لِمَنْ سَالَمْتُمْ)[1] .

(وعَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ، عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُّ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ سَمْتًا وَهَدْيًا وَدَلًّا، وَقَالَ الْحَسَنُ حَدِيثًا وَكَلَامًا، وَلَمْ يَذْكُرْ الْحَسَنُ السَّمْتَ وَالْهَدْيَ وَالدَّلَّ ، بِرَسُولِ اللهِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مِنْ فَاطِمَةَ كَرَّمَ اللهُّ وَجْهَهَا، كَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ، قَامَ إِلَيْهَا، فَأَخَذَ بِيَدِهَا، وَقَبَّلَهَا، وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ، وَكَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا، قَامَتْ إِلَيْهِ، فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ،فَقَبَّلَتْهُ،وَأَجْلَسَتْهُ فِي مَجْلِسِهَا .)[2] .

وأما بلاغتها وفصاحتها ، وفهمها للإسلام ، وأسرار تشريعاته الأساسية ،

" جامع البيان " (٢٢ / ١٠) ح / ٢١٧٣٤ ؛ الطحاوي في " مشكل الآثار " (١ / ٢٢٧) ح / ٧٧٠ ؛ الحاكم في " المستدرك على الصحيحين " (٣ / ١٤٧) ح / ٤٧٠٨ ؛ الخطيب في " المتفق والمفترق " (١ / ٥٤٨) ح / ٢٩٩ ، ابن عساكر في ترجمة الإمام علي (ع) (١ / ٢١٠) ح / ٢٧٢ ٢٧٣ – ٢٧٤؛ السعدي في " أحاديث الزهري " ص / ٤٦٢ ح / ٤٠٣ ؛ الطحاوي في " مشكل الآثار " (١ / ٢٢٨) ح / ٧٧٥ ؛ الطبراني في " المعجم الكبير " (٣ / ٥٤) ح / ٢٦٦٨ ، ابن عساكر في " تاريخه " (١٣ / ٢٠٥) ح / ٣١٨٦ ؛ ابن جرير في " جامع البيان " (٢٢ /) ح / ٢١٧ (٢٢ /)؛ أبو يعلى الموصلي في " المسند " (٦ / ٧٣) ح / ٦٨٥٢ ؛ ينابيع المودة ص٢٩٤.

١ــ مسند أحمد بن حنبل ٤٤٢/٢ ؛ ابن حبان في صحيحه ٤٣٣/١٥ ؛ ورواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين / ١٦١/٣، وابن ماجة في سننه / ٥٢/١ ، والترمذي في سننه / ٦٩٩/٥ ، وابن أبي شيبة في مصنفه / ٣٧٨/٦، والطبراني في المعجم الكبير / ٤٠/٣ . وأورد ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق في أكثر من مورد هذا ، أنظر : ج ١٣ / ٢١٨ ، ج١٤ / ١٤٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ؛ وإلى ترجمة الإمام الحسن عليه السلام،و ترجمة الإمام الحسين عليه السلام.

٢ــأخرجه أبو داود في سننه .

فدونك الخطبتين ، اللّتين ألقتهما ، في المسجد النبوي الشريف ، وفي بيتها ، بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وآله ، وبعد ما حدث ، ما حدث .

الخطبة الأولى

وهذه الخطبة عظيمةٌ بمضمونها ، قويةٌ بإسلوبها ، بيّنتُها واضحة ، وحجَّتُها دامغة .

لِهذه الخطبة العظيمة مصادرٌ عدّة :

وعلى ما قال ابن الأثير مجد الدين المبارك بن محمد ، (٥٤٤هج ـــ ٦٠٦ هج) ، الذي أورد الخطبة في كتابه "منال الطالب في شرح طوال الغرائب" : هذا الحديث أكثر ما يُروى عن طريق أهل البيت ، وإن كان قد روي عن طرق أخر ...إنتهى .[١]

وكذلك جاءت في كتاب "الدر المنثور"للوزير الكاتب أبي سعد منصور بن الحسين الآبي ، المتوفى ٤٢١هج.[٢].

١ــ وطُبع هذا الكتاب بتحقيق الدكتور الفاضل محمود محمد الطحاني ، ضمن سلسلة "من التراث الإسلامي"/ منشورات مركز البحث العلمي ، وإحياء التراث الإسلامي / كلية الشريعة ، والدراسات الإسلامية / جامعة أم القرى / مكة المكرمة / الكتاب الثامن ؛ وجاءت الخطبة ضمن الكتاب ص ٥٠١ . ٥٣٤ .

٢ــ وقد جاءت في السفر الثاني من أسفار الكتاب ، وفي الصفحة ٢٢٩ ، من النسخة المطبوعة من قبل منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية / دمشق / ١٩٩١م. / المختار من التراث العربي / برقم ٧٢ / تحت عنوان من نثر الدر / وكتب تحته : اختار النصوص ، وقدّم لها ، وعلّقَ عليها مظهر الحجّي / بعد الباب الثالث عشر ، حيث يبدأ الباب الأول / كلام النساء الشرائف / فاطمة ابنة رسول الله عليها السلام .

وأوردها كلٌّ من :

المحدث الشيخ محمد بن علي ، المعروف بالصدوق ، – ت٣٨١هـ – ، في كتابه المعروف "من لا يحضره الفقيه"[١]، وأورد بعضها كذلك في كتابه "علل الشرائع" في الباب١٨٢ ، تحت عنوان :علل الشرايع وأصول الإسلام .

والسيد الشريف المرتضى علي بن الحسين – ت ٤٣٦هـ – ، في كتابه "الشافي في الإمامة" . والطبري محمد بن جرير بن رستم – ت٣١٠هـ – ، في "دلائل الإمامة" .

والطبرسي ، ما بين القرن الخامس والسادس ، في "الاحتجاج على أهل اللجاج"[٢].

والشيخ أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلّي (القرن السادس) في "كشف الغمّة" .

وأنظر : "الفائق في غريب الحديث" ، لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨)[٣].

وابن طاووس الحلي علي بن موسى بن جعفر – ت٦٦٤هـ – ، في : "الطرائف من مذاهب الطوائف" .

١ــ وانظر شرحه المسمى ب"روضة المتقين" ، للمجلسي الأول – ت١٠٧٠هـ – .

٢ــ ج :١، من ص:٩٧ إلى ص:١٠٧، طبع مشهد المقدسة ١٤٠٣هـ. .وفي طبعة أخرى – ج ١ – ص ١٣١ – ١٤١.

٣/ ٤ / ١١٦ .

وكذلك كلاً من : شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد[١] ، وكتاب السيوطي "مسند فاطمة الزهراء"[٢]، وبحار الأنوار للشيخ المجلسي[٣].

وتنتهي أسانيد الرواية إلى عدد من الرواة ، منهم زينب الكبرى بنت علي وفاطمة ، والحسين الشهيد ، والباقر عليه السلام، وابن عباس ، وعبد الله بن الحسن المثنى ، وعائشة بنت أبي بكر.

وَمِنْ أقدم المصادر التي ذكرت خطبة الزهراء عليها السلام :

"غريب الحديث"، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، (ت:٢٧٦هـ)[٤] .

و"بلاغات النساء"، لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور ، (ت:٢٨٠هـ)[٥]:

(روى عَبْدُ الله بنُ الحَسَنِ عَليهِ السَّلامُ بإسْنَادِهِ عَنْ آبائِهِ عليهمُ السَّلامُ أَنَّهُ لَمّا أَجْمَعَ أبوبكر عَلى مَنْعِ فاطمةَ عليها السَّلامُ فَدَكَ ، وبَلَغَها ذلك ، لاثَتْ خِمارَها[٦]

١ــ عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد (ت ٦٥٦ هج.) / شرح النهج/ ج :١٦، ص٢١١/١٦ ، ص٢٤٩ و: ٦/ ٤٣ ..

٢ــ ص:٥٥٧.مسند فاطمة الزهراء ، للسيوطي ، جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الشافعي المصري (٨٤٩ . ٩١١ هـ) .

٣ــ ج:٤٣، ص:١٤٨.

٤ــ ٥٩٠/١ .

٥ــ ص١٦ .

٦ــ لاث العمامة شدّها ، وربطها، ولاثتْ خمارها لفته ، والخمار بالكسر:ما تُغطّي به المرأَةُ رأَسها، وجمعه أَخْمِرَةٌ ، وخُمْرٌ ، وخُمُرٌ.
سُميَ بذلك لأنّ الرأس يُخْمَر به ، أي يغطّى .

على رأسِها، واشْتَمَلَتْ بِجِلْبابِها[١]، وأَقْبَلَتْ في لُمَّةٍ مِنْحَفَدتِها[٢] ، ونساءِ قَوْمِها، تَطأ ذُيُولَها[٣]، ما تَخْرِمُ مِشْيَتُها مِشْيَةَرَسولِ الله صلى الله عليه وآله[٤]، حَتّى دَخَلَتْ عَلى أَبي بَكْر ، وَهُوَ فيحَشْدٍ مِنَ المهاجِرين والأَنصارِ ، وَ غَيْرِهِمْ ، فَنيطَتْ دونَها مُلاءَةٌ[٥]، فَجَلَسَتْ ، ثُمَّ أَنَّتْ أَنَّةً ، أَجْهَشَ القومُ لها بِالْبُكاءِ[٦] ، فَارْتَجَّ الْمَجلِسُ ، ثُمَّ أَمْهَلَتْ هَنِيَّةً حَتَّى إذا سَكَنَ نَشيجُ القومِ، وهَدَأَتْ فَوْرَتُهُمْ ، افْتَتَحَتِ الْكَلامَ بِحَمدِ الله وَالثناءِ عليه ، والصلاةِ على رسولِ الله ، فعادَ القومُ في بُكائِهِمْ، فَلَما أَمْسَكُوا عادَتْ فِي كلامِها ، فَقَالَتْ عليها السلام:

الْحَمْدُ لله عَلى ما أَنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ على ما أَلْهَمَ، وَالثَّناءُ بِماقَدَّمَ، مِنْ عُمومِ نِعَمٍ ابْتَدَأها ، وَسُبُوغِ آلاءٍ أَسْداها، وَتَمامِ مِنَنٍ والاها، جَمَّ عَنِ الإحْصاءِ عدَدُها، وَنأى عَنِ الْجَزاءِ أَمَدُها، وَتَفاوَتَ عَنِ الإدْراكِ أَبَدُها، وَنَدَبَهُمْ لِاسْتِزادَتِها بالشُّكْرِ لِاتِّصالِها ، وَاسْتَحْمَدَ إلَى الْخَلايِقِ بِإجْزالِها، وَثَنّى بِالنَّدْبِ إلى أَمْثالِها .

وَأَشْهَدُ أَنْ لاإلهَ إلاَّ اللهُ ، وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، كَلِمَةٌ جَعَلَ الإخْلاصَ تَأْويلَها ، وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَها، وَأَنارَ في الْفِكَرِ مَعْقُولَها.

الْمُمْتَنِعُ مِنَ الإبْصارِ رُؤْيِتُهُ، وَمِنَ الأَلْسُنِ صِفَتُهُ ، وَمِنَ الأَوْهامِ كَيْفِيَّتُهُ.

اِبْتَدَعَ الأَشْياءَ لا مِنْ شَيْءٍ كانَ قَبْلَها ، وَأَنْشَأَها بِلا احْتِذاءِ أَمْثِلَةٍ امْتَثَلَها ،

١ــ الاشتمال بالشئ جعله شاملا ومحيطا لنفسه ؛ والجلباب : الرداء ، والإزار .

٢في لمة: أي جماعة ، والحفدة بالتحريك : الأعوان والخدم .

٣ــ وكأنَّ أثوابها كانت طويلة تستر قدمها كلّيّاً ، بحيث أنها عندما كانت تمشي لطول ثوبها تطأه .

٤ــ الخرم بضم الخاء ، وسكون الراء الترك ، والنقص ، والعدول ، أي أن مشيتها كمشيته ﷺ .

٥ــ ناط الشئ علقه ، نيطت : أي علقت ، والملاءة : الإزار .

٦ــ وجَهَش للبُكاء ، يجهَش جهْشاً ، وأجهش كلاهما ، استعدَّ له واسْتَعْبَرَ ، والمُجْهِش الباكي نفْسُه .

كَوَّنَها بِقُدْرَتِهِ ، وَذَرَأَها بِمَشِيَّتِهِ ، مِنْ غَيْرِ حاجَةٍ مِنْهُ إلى تَكْوينِها ، وَلا فائِدَةٍ لَهُ في تَصْويرِها ، إلاّ تَثْبيتاً لِحِكْمَتِهِ ، وَتَنْبيهاً عَلى طاعَتِهِ، وَإظْهاراً لِقُدْرَتِهِ، وَتَعَبُّداً لِبَرِيَّتِهِ، وإعزازاً لِدَعْوَتِهِ .

ثُمَّ جَعَلَ الثَّوابَ على طاعَتِهِ، وَوَضَعَ العِقابَ عَلى مَعْصِيتِهِ، ذِيادَةً[١] لِعِبادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ ، وَحِياشَةً مِنْهُ إلى جَنَّتِهِ[٢] .

وَأَشْهَدُ أنّ أبي مُحَمَّداً صلّى الله عليه وآله عبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، اخْتارَهُ وَانْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ ، وَسَمّاهُ قَبْلَ أنِ اجْتبَلَهُ ، وَاصْطِفاهُ قَبْلَ أنِ ابْتَعَثَهُ، إذِ الْخَلائِقُ بالغَيْبِ مَكْنُونَةٌ، وَبِسِتْرِ الأَهاويل مَصُونَةٌ، وَبِنِهايَةِ الْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ ، عِلْماً مِنَ الله تَعالى بِمآيِلِ الأُمُور ، وَإحاطَةً بِحَوادِثِ الدُّهُورِ، وَمَعْرِفَةً بِمَواقِعِ الْمَقْدُورِ.

ابْتَعَثَهُ اللهُ تعالى إتْماماً لأمْرِهِ، وَعَزيمَةً على إمْضاءِ حُكْمِهِ ، وَإنْفاذاً لِمَقادِير حَتْمِهِ.

فَرَأى الأُمَمَ فِرَقاً في أدْيانِها، عُكَّفاً على نيرانِها، عابِدَةً لأَوثانِها، مُنْكِرَةً لله مَعَ عِرْفانِها. فَأَنارَ اللهُ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله ظُلَمَها، وكَشَفَ عَنِ القُلُوبِ بُهَمَها[٣]، وَجَلّى عَنِ الأَبْصارِ غُمَمَها[٤]، وَقَامَ في النّاسِ بِالهِدايَةِ، وأنقَذَهُمْ مِنَ الغَوايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ العَمايَةِ، وهَداهُمْ إلى الدّينِ القَويمِ، وَدَعاهُمْ إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ .

---

١ الذَّوْدُ : السَّوْقُ ، والطَّرْدُ ، والدَّفْعُ .

٢ــ حاش الإبل : جمعها ، وساقها.

٣ــ أي مبهماتها .

٤ــ الغمم : جمع غمّة ، وهي : المبهم ، والملتبس .

ثُمَّ قَبَضَهُ اللهُ إليْهِ ، قَبْضَ رَأْفَةٍ وَاختِيارٍ، ورَغْبَةٍ وَإيثارٍ بِمُحَمَّدٍصلى الله عليه وآله ، عَنْ تَعَبِ هذِهِ الدّارِ في راحةٍ ، قَدْ حُفَّ بالمَلائِكَةِ الأبْرارِ، وَرِضْوانِ الرَّبَّ الغَفارِ ، ومُجاوَرَةِ المَلِكِ الجَبّارِ.

صلى الله على أبي نبيَّهِ ، وأَمينِهِ عَلى الوَحْيِ، وَصَفِيِّهِ ، وَخِيَرَتِهِ مِنَ الخَلْقِ ، وَرَضِيِّهِ، والسَّلامُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكاتُهُ.

ثُمَّ التفتَتْ إلى أهْلِ المَجْلِسِ وقالتْ:

أَنْتُمْ ، عِبادَ الله ، نُصْبُ أمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَحَمَلَةُ دينِهِ وَوَحْيِهِ، وأُمَناءُ الله عَلى أنْفُسِكُمْ ، وَبُلَغاؤُهُ إلى الأُمَمِ، وَزَعَمْتُمْ حَقٌّ لَكُمْ لله فِيكُمْ ، عَهْدٌ قَدَّمَهُ إلَيْكُمْ، وَبَقِيَّةٌ استَخْلَفَها عَلَيْكُمْ ، كِتابُ الله النّاطِقُ ، والقُرْآنُ الصّادِقُ، وَالنُّورُ السّاطِعُ، وَالضِّياءُ اللاّمِعُ، بَيِّنَةٌ بَصائِرُهُ، مُنْكَشِفَةٌ سَرائِرُهُ، مُتَجَلِّيَةٌ ظَواهِرُهُ، مُغْتَبِطَةٌ بِهِ أَشْياعُهُ ، قائِدٌ إلى الرِّضْوانِ اتّباعُهُ، مُؤَدٍّ إلى النَّجاةِ إسْماعُهُ .

بِهِ تُنالُ حُجَجُ الله المُنَوَّرَةُ، وَعَزائِمُهُ المُفَسَّرَةُ ، وَمَحارِمُهُ المُحَذَّرَةُ، وَبَيِّناتُهُ الجالِيَةُ ، وَبَراهِينُهُ الكافِيَةُ ، وَفَضائِلُهُ المَنْدوبَةُ ، وَرُخَصُهُ المَوْهُوبَةُ، وَشَرايِعُهُ المَكْتُوبَةُ .

فَجَعَلَ اللهُ الإيمانَ تَطْهيراً لَكُمْ مِنَ الشِّرْكِ ، وَالصَّلاةَ تَنْزِيهاً لَكُمْ عَنِ الكِبْرِ، والزَّكاةَ تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ ، وَنَماءً في الرِّزْق ،والصِّيامَ تَثْبيتاً للإِخْلاصِ ، والحَجَّ تَشْييداً لِلدّينِ، وَالعَدْلَ تَنْسيقاً لِلْقُلوبِ، وَطاعَتَنا نِظاماً لِلْمِلَّةِ ، وَإمامَتَنا أماناً مِنَ الْفُرْقَةِ ، وَالجِهادَ عِزاً لِلإِسْلامِ، وَالصَّبْرَ مَعُونَةً عَلَى اسْتِيجابِ الأَجْرِ، وَالأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعامَّةِ، وَبِرَّ الْوالِدَيْنِ وِقايَةً مِنَ السَّخَطِ ، وَصِلَةَ الأَرْحامِ مَنْماةً لِلْعَدَدِ ، وَالْقِصاصَ حِصْناً لِلدِّماءِ ، وَالْوَفاءَ بِالنَّذْرِ تَعْريضاً لِلْمَغْفِرَةِ ، وَتَوْفِيَةَ

المَكاييلِ وَالمَوَازينِ تَغْييراً لِلْبَخْسِ ، وَالنَّهْيَ عَنْ شُرْبِ الْخَمْرِتَنْزِيهاً عَنِ الرِّجْسِ، وَاجْتِنابَ الْقَذْفِ حِجاباً عَنِ اللَّعْنَةِ ، وَتَرْكَ السِّرْقَةِ إيجاباً لِلْعِفَّةِ.

وَحَرَّمَ الله الشِّرْكَ إخلاصاً لَهُ بالرُّبُوبِيَّةِ .

((فَاتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ))[١]، وَ أطيعُوا اللهَ فيما أمَرَكُمْ بِهِ ، وَنَهاكُمْ عَنْهُ، فَإنَّه : ((إنَّما يَخْشَى الله مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ))[٢].

ثُمَّ قالت: أيُّهاالنّاسُ! اعْلَمُوا أنِّي فاطِمَةُ، وَأبي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، أَقُولُ عَوْداً وَبَدْءاً، وَلا أقُولُ ما أقُولُ غَلَطاً، وَلاأفْعلُ ما أفْعَلُ شَطَطاً[٣] ، ((لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنَ أنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنينَ رَؤُوفٌ رَحيمٌ))[٤]، فَإنْ تَعْزُوهُ ، تَجِدُوهُ أبِي دُونَ نِسائِكُمْ ، وَأخا ابْنِ عَمي ، دُونَ رِجالِكُمْ، وَلَنِعْمَ المَعْزِي إلَيْهِ صلّى الله عليه ، فَبَلَّغَ النذارَةَ ، صَادِعَاً بِالرسَالَةِ ، ناكباً عَنْ سنن المُشْرِكِينَ ، ضَارِباً لأثْبَاجِهِمْ[٥] ، آخِذَاً بِأكْظامِهِمْ[٦] ، دَاعِيَاً إلى سَبِيلِ رَبّهِ بِالْحِكْمَةِ ، وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ، يَفُضُّ الهام[٧] ، ويجُذُّ الأَصْنامَ[٨] ، حَتّى انْهَزَمَ الجَمْعُ ، وَوَلَّوُا الدبُرَ ، وحَتَّى تَفَرَّى اللَّيْلَ عَنْ صُبْحِهِ ، وَأسْفَرَ الحَقُّ عَنْ مَحْضِهِ ، وَنَطَقَ زَعِيمُ

١ــ سورة آل عمران / ٢ .

٢ــ سورة فاطر / ٢٨ .

٣ــ الشطط بالتحريك: هو البعد عن الحق ، ومجاوزة الحدّ في كل شئ.

٤ــ نفس الآية السابقة .

٥ــ ثَبَجُ كلِّ شيء: مُعْظَمُهُ ووَسَطُهُ وأَعلاه، والجمع أثباج ، وثُبُوجٌ.

٦ــ ويقال: أخذت بكَظْمِه ، أي بمَخْرَج نَفَسه ، والجمع أكظام .

٧ــفَضَضْتُ الشيءَ ، أَفُضُّه فَضّاً، فهو مَفْضُوضٌ ، وفَضِيضٌ : كسرتُه ، وفَرَّقْتُه .

٨ــ الجَذُّ: كسر الشيء الصُّلْب. جَذَذْتُ الشيءَ: كسرتُه وقطَعْتُه .

الدينِ ، وهدأتْ فَوْرةُ الكفْر ، وَخَرسَتْ شَقَاشِقُ الشَّياطِينِ[١] ، وَطَاحَ وَشِيظُ النفاقِ[٢] ، وَانْحَلَّتْ عُقَدُ الكُفْرِ وَالشقَاقِ ، وَفُهْتُمْ بِكلِمَةِ الإِخْلاصِ ، فِي نَفَرٍ مِنَ البِيضِ الخِماصِ ، ((وَكُنْتُمْ عَلى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ))[٣]، فأنْقَذَكُم منها بنبيّهِ ، تعْبُدُونَ الأصْنامَ ، وتَسْتَقْسِمُونَ بالأزْلام ، مَذْقَةَ الشَّارِبِ ، وَنُهْزَةَ الطَّامِعِ[٤]، وَقُبْسَةَ العَجْلانِ[٥] ، وَمَوْطِئَ الأَقْدامِ ، تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ[٦] ، وَتَقْتَاتُونَ القدَّ[٧] والوَرَقَ ، أذِلَّةً خَاسِئِينَ ، تَخَافُونَ أنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ ، فَأنْقَذَكُمُ اللهُ بِنبيّه صلى الله عليه وآله ، بَعْدَ اللَّتِيَّا وَالَّتِي ، وَبَعْدَ ما (مُنِيَ بِبُهَمِ الرِّجالِ[٨] ، وَذُؤْبانِ العَرَبِ ، وَمَرَدَةِ أهَلِ الكِتَابِ ، ((كُلَّما أوْقَدُوا نَاراً لِلْحَربِ أطْفَأها اللهُ))[٩]، أوْ نَجَمَ قَرْنٌ للضلالة ، أوَ فَغَرَتْ فَاغِرَةٌ الْمُشْرِكِينَ ، قَذَفَ أخَاهُ "عليّاً" فِي لَهَواتِها ، فَلا يَنْكَفِئُ

١ــ والشِّقْشِقةُ: لَهاةُ البعير ، ولا تكون إلا للعربيّ من الإبل ، وقيل : هو شيء كالرِّئة يخرجها البعير من فيه إذا هاج ، والجمع الشقاشق ، ومنه سُمّي الخطباء شقاشق ، شَبَّهوا المِكْثار بالبعير الكثير الهَدْرِ .

٢ــ الوشيظة والوشيظ : الدُّخلاء في القوم ، ليسوا من صَميمهم ؛ والوشيظ : الخسيس من الناس ، كذلك ، وأصلاً الوَشِيظةُ قِطعة عظم تكون زيادة في العظم الصَّمِيم .

٣ــ آل عمران / ١٠٣ .

٤ــ النهزة : اسم للشيء الذي هو لكمُ عَرَّض كالغنيمة.ويقال: فلان نهزة المُخْتَلِسِ أي هو صيد لكل أَحد .

٥ــ قَبَسْتُه ناراً : إذا جِئْتُهُ بها.وفي المَثَل : ما أنْتَ إلاّ كقابِسِ العَجْلان .

٦ــ الطرق : الماء المجتمع الذي خيضَ فيه وبِيل وبُعِرَ ، فكَدِر، والجمع أَطْرَاق.

٧ــ القد : جِلد السخلةِ الماعزة، والجمع القليل أَقُدٌّ ، والكثير قِدادٌ، عن ابن السكيت.

٨ــ البهم جمع بُهمة بالضم ، وهي مُشكلات الأُمور ؛وكلام مبهم : لا يعرَف له وَجْه يؤتى منه، مأخوذ من قولهم حائط مبهم إذا لم يكن فيه بابٌ.

وأصل : الباء والهاء والميم : أن يبقى الشّيءُ لا يُعْرَفُ المأْتَى إليه ،ومنه أخذ البُهمة بالضم الشجاع ، وقيل: هو الفارس الذي لا يُدْرَى من أَين يُؤتى له من شدَّة بأْسِه ، والجمع بُهَم .

٩ــ سورة المائدة / ٦٤ .

حَتّى يَطَأ صِماخَها بِأَخْمَصِهِ ، وَيُخْمِدَ لَهَبَها بِحدِّهِ ، مَكْدُوداً فِي طاعة الله ورسوله ، مُجْتَهِداً فِي أمْرِ الله ، قَرِيباً مِنْ رَسُولِ الله ، سَيّداً فِي أوْلِياءِ الله ، مُشَمّراً نَاصِحاً ، مُجِدّاً كَادِحاً . وَأنْتُمْ فِي بُلَهْنِيَةٍ[١] وَادِعُونَ ، آمِنُونَ فرِحون ، وفِي رَفَاهِيَة مِنَ العَيْشِ فَكِهُونَ ، تأْكُلُون العَفْوَ ، وتشربُوْنَ الصَفْوَ ، تَتَوَكَّفُونَ الأخْبارَ، وَتَنْكُصُونَ عِنْدَ النزالِ ، وَتَفِرونَ مِنَ القِتَالِ .

فَلَمّا اخْتارَ اللهُ لِنَبِيهِ دَارَ أنْبيائِهِ ، وَمحلَّ أصْفِيائِهِ ، ظَهَرَتْ فِيكُمْ حَسِيْكَةُ النِّفاقِ[٢] ، وَانْسَمَلَ جِلْبابُ الدينِ[٣] ، وأخْلقَ عهده ، وانتقضَ عقده ، وَنَطَقَ كَاظِمُ الغاوين ، وَنَبَغَ خَامِلُ الأقلين ، وَهَدَرَ فَنِيقُ الباطِلِ[٤]، يخْطُرُ فِي عَرَصَاتِكُمْ ، وَأطْلَعَ الشّيطانُ رَأسَهُ مِنْ مَغْرِزِهِ ، صارخاً بِكُمْ ، فَأَلْفاكُمْ لِدَعْوَتِهِ مُصيخينَ ، وَلِلْغِرَّةِ مُلاحِظِينَ ، واسْتَنْهَضَكُمْ فَوَجَدَكُمْ خِفافاً ، وَأحْمَشَكُمْ فَألْفاكُمْ غِضاباً ، فَوَسَمْتُمْ غَيْرَ إبِلِكُمْ ، وأَوردْتُموها غَيْرَ شِرْبِكُمْ .

هَذا وَالعَهْدُ قَرِيبٌ ، وَالكَلْمُ رَحِيبٌ ، وَالجُرْحُ لمّا يَنْدَمِلْ ، وَالرَّسُولُ لمّا يُقْبَر ، بِدارَاً زَعَمْتُمْ خَوْفَ الفِتْنَةِ ! ((ألا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكافِرِين))[٥]

هَيْهَاتَ مِنْكُمْ ؟ وَأينَ بِكُمْ ؟ وَأنَّى تُؤْفَكُونَ ؟! وَكِتَابُ اللهِ بَيْنَ أظْهُرِكُمْ،

١ــ البلهنية : الرَّخاء وسَعَةُ العَيْش .

٢ــ الحسيكة : الحقد والضغينة .

٣ــ السين والميم واللام أصلٌ يدلُّ على ضعفٍ وقلّة. من ذلك السمل وهو الثَّوْب الخَلَق.

٤ــ والفنيق كالأمير : الفَحْلُ المُكْرَمُ لا يُؤْذَى لِكَرامَتِهِ على أهلِهِ ولا يُرْكَبُ . وهدر البعير هَديراً ، أي ردَّد صوته .

٥ــ التوبة ٤٩.

أُمُورُهُ ظَاهِرَةٌ ، وَأَحْكامُهُ زَاهِرَةٌ ، وزَوَاجِرُهُ قاهرة ، وَأَوَامِرُهُ لاَئِحَةٌ ، وأدلته وَاضِحَةٌ ، وَأَعْلامُهُ بَيّنَةٌ ، قَدْ خَلَّفْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ !!

أَرَغْبَةً ، ويُحَكُمْ ، عَنْهُ تُدْبِرُونَ ؟ أَمْ بِغَيْرِهِ تَحْكُمُونَ ؟!

((بِئْسَ لِلظّالِمِينَ بَدَلاً))[١]، ((وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ))[٢].

(ثُمَّ لَمْ تَلْبَثُوا بعد اجتهاد ، إلاّ رَيْثَما سكنتَ نِفْرَتُها ، وَأَسْلَسَ قِيادُها ، ثُمَّ أَخَذْتُمْ تُورُونَ وَقْدَتَها ، وَتُهَيّجُونَ جَمْرَتَها ، وَتَسْتَجِيبُونَ لِهتافِ الشَّيْطَانِ الغَوِيّ ، وَإِطْفاءِ أَنْوارِ الدّينِ الجَلِي ، وَإِهْمادِ سُنَنِ النَبيّ الصَفِيّ ، تُسِرّونَ حَسْوَاً فِي ارْتِغَاءٍ[٣]،وَتَمْشُونَ لأَهْلِهِ وَوُلْدِهِ ، فِي الخَمَر وَالضَّرآءِ ، وَنحن نَصْبِرُ مِنْكُمْ عَلى مِثْلِ حزّ المُدَى ، وَوَخْزِ السنانِ فِي الحَشَا ! وَأَنْتُمْ الآنَ تَزْعَمُونَ أَنْ لا إِرْثَ لَنَا ، ولاحَظّ ! ((أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ تَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمَاً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟))[٤].

١_ الكهف ٥٠ .

٢_ آل عمران ٨٥ .

٣_ رَغْوة اللبن ورُغوته ورُغاوتُه ورِغاوتُه ورُغايته ورِغاتته ، كل ذلك: رَبَدهُ ، والجمع رُغا .وارْتَغَيْتُ شربْتُ الرُّغْوة .والأرْتِغاء: سَحْفُ الرَّغْوة واحْتِساؤها؛ الكسائي: هي رَغْوة اللبن ، ورُغْوتهُ ، ورِغْوته ، ورغاؤه ، ورغايته ، وزاد غيره رِغاتِته .وارْتَغَى الرُّغْوة : أَخذها واحتساها . وفي المثل : يُسِرُّ حَسْواً في ارْتِغاءٍ ؛ يُضربُ لِمَن يُظهر أَمراً ، وهو يريد غيرهَ ؛...وفي التهذيب: يُضرَب مثلاً لمن يُظهر طلَب القليل ، وهو يُسِرُّ أَخْذَ الكثير. ومعنى كلمات المثل : أنه يوهم من أنه يُريد أن يحتسي الرغوة فقط ، ولكنه في الحقيقة يريد أن يشرب اللبن ، فيسر من السر ، حسواً أي شرباً ، والإرتغاء هو شرب الرغوة . أنظر كتب اللغة / مادة رغا .

٤_ سورة المائدة ٥٠ .

بَلى قَدْ تَجَلَّى لَكُمْ كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ أَني ابْنَتُهُ .

إيْهاً معاشر المُسْلِمينَ ، أأبْتزُّ إِرْثِيَهْ ؟

يَا ابْنَ أَبِي قُحافَةَ ، أَفِي كِتابِ اللهِ أنْ تَرِثَ أباكَ ، وَلاَ أَرِثُ أَبِيَهْ ؟

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئَا فَرِيَّاً ![1]

جرْأةً منكم على قطيعة الرحِم ، ونكْث العهْد ، أفَعَلى عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتابَ اللهِ، وَنَبَذْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، إِذْ يَقُولُ : ((وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُد))[2]

وَقَالَ فِي ما اقْتَصَّ مِنْ خَبَرِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيّا عليهما السلام ، إِذْ قَالَ : ((فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ))[3]

وَقَالَ : ((وأُولُوا الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ))

وَقَالَ: ((يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظ الأُنْثَيَيْنِ))

وَقَال: ((إِنْ تَرَكَ خَيْراً الوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقَّاً عَلى الْمُتَّقِينَ))

(وَزَعَمْتُمْ أَنْ لاحظْوَةَ لِي ، وَلا إِرْثَ مِنْ أبي ، وَلاَ رَحِمَ بَيْنَنَا !

أَفَخَصَّكُمُ اللهُ بِآيَةٍ ، أَخْرَجَ أَبِي صلى الله عليه وآله ، مِنْها ؟

أَمْ هَلْ تَقُولُونَ : إِنَّا أَهْلُ مِلَّتَيْنِ لا يَتَوارَثانِ ؟ أَوَلَسْتُ أَنَا وَأَبِي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ

١ــ إلى هنا موجود في "الدر" ثم يتم ب فدونكها مخطومة ..إلى قولها عليها السلام : ولكُل نَبَأٍ مُسْتَقَر، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

٢ــ النمل / ١٦ .

٣ــ مريم / الآيتان : ٥،٦ .

واحِدَةٍ ؟!

أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِخُصُوصِ القُرآنِ ، وَعُمُومِهِ مِنْ أَبِي ، وَابْنِ عَمي ؟!

فَدُونَكَهَا مَخْطُوْمَةً ، مَرْحُولَةً مزْمومةً ، تكون معك في قبرك ، وتَلْقاكَ يَوْمَ حَشْرِكَ ، فَنِعْمَ الحَكَمُ اللهُ ، وَنعم الزَّعِيمُ مُحَمَّدٌ ، وَالمَوْعِدُ القِيامَةُ ، وَعِنْدَ السَّاعَةِ يَخْسَرُ المُبْطِلُونَ .

وَ((لِكُل نَبَأٍ مُسْتَقَر، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ))[1].[2]

١ــ الأنعام / ٦٧ .

٢ــ إلى هنا موجود في " الدر" ، نعم يضيف على ذلك كله ، ويختم كلامها به : ثم انكفئت على قبر أبيها، وقالت :

قد كان بعدك أنباءٌ وهنبَثَةٌ لو كنت شاهدها لم تكثرِ الخُطَبُ

إنّا فقدناك فقد الأرضِ وابلها واختلَّ أهلُكَ فاحضرْهُمْ ولا تَغِبِ

إنتهى ما في "الدر" ، وفي البيتين إقواءٌ كما هو ظاهر .

ولكن ورد من طرقنا بسند صحيح : ما رواه الشيخ المفيد في (أماليه ص٤٠، المجلسي ٥/ج٨) : عن محمد بن عمر الجعابي قال : أخبرنا أبو عبد الله جعفر بن محمد بن جعفر الحسني ، قال : حدثنا عيسى بن مهران ، عن يونس ، عن عبد الله بن محمد بن سليمان الهاشمي ، عن جده ، عن زينب بنت علي بن أبي طالب عليها السلام، قالت : لمّا اجتمع رأيُ أبي بكر على منع فاطمة عليها السلام فدك والعوالي ، وآيست مِن اجابته لها، عدلت إلى قبر أبيها رسول الله فألقت نفسها عليه ، وشكت إليه ما فعله القوم بها، وبكت ، حتى بلّت تربته بدموعها ، وندبته ،ثم قالت في آخر ندبتها:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة لو كنت شاهدها لم تكثر الخُطُبُ

إنّا فقدناك فَقْدَ الأرضِ وابلَها وأختلَّ قومُك فاشهدْهُمْ فقدْ نَكَبُوا

إلى أبيات أخر .

وهنا إذا لاحظنا الأبيات ما نرى إقواءاً فيها ، بل كلها بقافية واحدة ، وحركة متجانسة .

ونحن نرجّح هذا ، لأنه ورد بالسند الصحيح ، عنهم سلام الله عليهم أجمعين .

وإن كان الثاني ، فيمكن أن يكون له حديثٌ آخر ، ويُمكن أن يوجه بتوجيهٍ لطيف ، لعلنا ننفرد به :

الإقواء معناه : رفعُ قافية بيتٍوجرُّ أخرى ، وبما أن المتأخرين هم مَن وضع المصطلحات ، وضعوا هذا المصطلح لهذا الفعل ، لأنهم عدّوه من عيوب القافية ، فأخذوه من قولهم أقوى الحبل ، أي جعل بعضه أغلظ من البعض الآخر ، والتغيير من الرفع إلى الكسر ، هو تغيير ، وهو غير متناسق .

ويدّعي بعضهم من أن سبب حدوث هذا في الشعر العربي هو القصائد التي تكون فيها القافية ساكنة ، وهو أمرٌ مسموحٌ به في القصائد العربية ، أنظر في ذلك الدكتور غالب الشاويش في كتابه " علم العروض والقوافي " الصفحة ٣٣٢ .

ولكنه قولٌ بعيد ، لأنّ ما ذكرهُ ليس من الإقواء بشئ ، ولم يعبْ أحدٌ عليه أبداً ، وإنِ اختلف إعراب القافية في كل بيت ، فالحرفُ الذي تُبْنى عليه القصيدةُ هو حرف الروي ، كما هو معلوم ، وهنا هو الحرفُ بما هو ساكنٌ ، وليس المُعرب ، فانتبه. ثُمَّ المجئ بقافية مكسورة بعد الرفع ، أمرٌ كان محموداً لِغرضٍ ما ، ثمَّ أصبح في نظر التالين من عيوب القافية فهجروه ، ولو بسطنا القول فيه ، وتمعّنا بأمرِ ما يُسمى بالإقواء، فربما رأينا أنه ذا فائدة يريدها من أنشأ أبياته ، يستعمله لكي يلتفت السامع،لِيمعن النظرَ، لأنّ تغيير القافية بهذا الشكل الشديد يوجب الإنتباه ، وربما لهذا لم يكن عيباً عند الشعراء السابقين ، وأعني بهم الشعراء العرب الأوائل ، ومَن جاء بعدهم من أهل الإسلام . وبعدها أصبح غيرَ مُستساغٍ عند المولدين ، فتنبّه . فالإقواء عند المولدين ومن جاء بعدهم من العيوب ، بينما كان عند القدماء ، من المحاسن لو قلَّ ، لنكتةٍ أدبية .

والدليلُ على هذا وجوده في عيون الشعر العربي ، أعني بذلك المعلقات ، فلو كان أمراً معيباً لما جاء فيها، إذ لو كان عيباً فهو من أشدّ العيوب الظاهرة حتى لعامة العرب وجهالهم ، فكيف بأدبائهم وشعرائهم؟! فلاجتنبوه .

ويكفيك قول الحارث بن حلزم في معلقته :

ليس يُنجي الذي يوائلُ عنّا رأسُ طـودٍ أو حرةٌ رجلاءُ

فَمَـلَكْنا بذلكَ النّاسَ حتى ملك المنذرُ بنُ ماء السماءِ

واستعمله كذلك امرؤ القيس ، والنابغة الذبياني ، وحسّان بن ثابت ، في أبيات مشهورة لكلٍّ واحدٍ منهم، يُورد أغلبَها كلُّ مَن كتب في الشعر وعروضه ، والمقام ليس محل عرضها .

وهنا الزهراء عليها السلام كانت كإمرأة عربية عندما ثكلت بعظيم ، وأيّ عظيم !! أتت ببيت أو ببيتين كما هي عادة نساء العرب الفصحاء يومها .

لكنها ليست بشاعرة ، فجاءت بأبيات ليست متناسقة كلياً من جهة اللفظ الشعري ، وبنفس الوقت تريد أن تلفت أنظارهم وتصكّ أسماعهم ، بهذا الإختلاف في القافية ، وكأنها تنبههم على الأمر الذي اقترفوه ، مِن عدم اتزانه ، وأنّه خلاف السياق العام وإن قبلوه .

((.. مَنْ يَأتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيه وَيَحِل عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ.))[١]

ثُمَّ رَنَتْ عليها السلام بِطَرْفِها نَحْوَ الأَنْصارِ ، وَقَالَتْ :

يَا مَعْشَرَ النَّقِيبَة ، وَأعْضادَ المِلَّةِ ، وَحَضَنَةَ الإسْلاَمِ : مَا هَذِهِ الغَمِيزَةُ فِي حَقّي، وَالسِّنَةُ عَنْ ظُلاَمَتِي ؟!

أمَا قال رَسُولُ الله أبِي : المَرْءُ يُحْفَظُ فِي وُلْدِهِ ؟ لَسَرْعانَ مَا أحْدَثْتُمْ ، وَعَجْلاَنَ ذَا إِهالَة ، وَلَكُمْ طَاقَةٌ بِما اُحاوِلُ ، وَقُوَّةٌ عَلَى مَا أطْلُبُ وَأزاوِلُ ؟!

أتَقُولُونَ مَاتَ مُحَمَّدٌ ؟ لعمري خَطْبٌ جَلِيلٌ اسْتَوْسَعَ وَهْيُهُ ، وَاسْتَنْهَرَ فَتْقُهُ ، وَفُقِد رَاتِقُهُ ، وَأظْلَمَتِ الأرْضُ لِغَيْبَتِهِ ، واكتأبت خِيَرَةُ الله لِمُصِيبَتِهِ ، وَخَشَعَتِ الجِبالُ ، وَأكْدَتِ الآمالُ ، وَأُضِيعَ الحَرِيمُ ، وَأُزِيلَتِ الحُرْمَةُ ، فَتِلْكَ وَالله النَّازِلَةُ الكُبْرى ، وَالمُصِيبَةُ العُظْمى ، لا مِثْلُها نَازِلَةٌ ، وَلا بائِقَةٌ عاجِلَةٌ ، أعْلَنَ بِها كِتابُ الله عَزَّ وَجَلَّ ، فِي مَمْساكُمْ وَمُصْبَحِكُمْ ، يَهْتِفُ بِهِ فِي أفْنِيَتِكُمْ هِتافاً ، وَصُراخاً ، وَتِلاوَةً ، وَإلحاناً ، وَلَقَبْلَهُ ما حَلَّ بِأنْبِياءِ الله ، وَرُسُلِهِ ، حُكْمٌ فَصْلٌ ، وَقَضَاءٌ حَتْمٌ: ((وَما مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرسُلْ أفَإِنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرّ اللهَ شَيْئَاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرين))[٢]

(إيْهاً بَنِي قَيْلَةَ[٣] ! أاُهْضَمُ تُراثَ أبِيَهْ ، وَأنْتُمْ بِمَرْأىً مِنّي وَمَسْمَعٍ ، وَمُنْتَدى

وكأنها من جهةٍ لا يُعاب عليها ذلك لأنه موجودٌ في شعرهم ، ومن أخرى أنه يوجب الإلتفات ، ومن جهة ثالثة للتنبيه على أنها بعيدة عن الشعر ، وإن كان له ثقله عندهم ، ولذلك أتت به ختاماً ، روحي فداها .

١ــ هذا جزء من آية ، والآية أصلها : ((فسوف تعلمون مَنْ يَأتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيه وَيَحِل عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)) هود / الآية ٣٩ . وما ألطف الجمع بين آيتي الأنعام وهود ، كما هو بيّن .

٢ــ آل عمران ١٤٤ .

٣ــ وبنوا قَيْلَة المقصود بهم الأنصار من الأوس والخزرج ، إذ كانوا يُدعون بأمٍّ لهم قديمة ، يُقال هيَ قيلة بنت كاهل قضاعيّة ، ويُقال قيلة بنت جفنة غسّانية . أنظر جمهرة أنساب العرب / ابن حزم / ٣٣٢ ؛ كتب اللغة كلسان العرب ، وتاج العروس ، مادة (ق ي ل) .

وَمَجْمَعَ ؟

تَشْمَلُكُمُ الدَّعْوَةُ ، وتَلْبَسُكُمُ الحَيْرَةُ ، وفيكم العَدَدُ وَالعُدَّةُ ، وَلكم الدارُ ، وعندكم الجُنَنُ ، والأَداةُ وَالقُوَّةُ ، وَعِنْدَكُمُ السلاحُ ، تُوافِيكُمُ الدَّعْوَةُ فَلا تُجِيبُونَ، وَتَأتِيكُمُ الصَّرْخَةُ فَلا تُغِيثُونَ ، وَأَنْتُمْ مَوْصُوفُونَ بِالْكِفاحِ ، مَعْرُوفُونَ بِالْخَيْرِ وَالصَّلاحِ ، والنخْبَةُ الَّتي انتُخِبَتْ لنا أهلَ البيتِ ، وَالخِيَرَةُ الَّتي اخْتِيرَتْ ، فنابذتُمُ فينا صميمَ العَرَبَ ، وَتَحَمَّلْتُمُ الكَدَّ وَالتَّعَبَ ، وَنَاهضْتُمُ الأُمَمَ ، وَكَافَحْتُمُ البُهَمَ ، لا نَبْرَحُ ولا تَبْرَحُونَ ، نَأمُرُكُمْ فَتَأْتَمِرُونَ ، حَتَّى إذا دارَتْ بِنا رَحى الإسْلامِ ، وَدَرَّ حَلَبُ الأَيَّامِ ، وَخَضَعَتْ نخوة الشِّرْكِ ، وَسَكَنَتْ فَوْرَةُ الإِفْكِ ، وَهَمَدَتْ نِيرانُ الكُفْرِ ، وَهَدَأتْ روْعةُ الهَرْجِ ، وَاسْتَوْسَقَ نِظامُ الدينِ ، فَأنّى حِرتُمْ، بَعْدَ البَيَانِ، وَأسْرَرْتُمْ ، بَعْدَ الإِعْلان ، وَنَكَصْتُمْ ، بَعْدَ الإقْدامِ ، وجَبُنْتُمْ بعدَ الشَجاعَةِ عن قوْمٍ ((.. نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ من بعد عَهْدِهِمْ ، وطَعَنُوا في دينكم . فقاتلُوا أئمّةَ الكُفْرِ إنّهُمْ لا أيْمانَ لَهُمْ لَعَلّهُمْ يَنْتَهُوْنَ))[1]؟!

((ألا تُقاتِلُونَ قَوْمَا نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإخراجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ))[2]

ألا قَدْ أرى ، والله، أنْ قَدْ أخْلَدْتُمْ إلى الخَفْضِ ، وَأبْعَدْتُمْ مَنْ هُوَ أحَقُّ بِالْبَسْطِ وَالقَبْضِ ، وَخُلِبتُمْ بِالدَّعَة ، نَجوْتُمْ مِنَ الضيقِ بِالسعَةِ ، فَمَجَجْتُمْ الذي عرفتُمْ ، وَدَسَعْتُمُ الَّذِي تَسَوَّغْتُمْ ، فَ((..إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً

١ــ أصل الآية : ((وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ)) التوبة (١٢) .

٢ــ التوبة/ ١٣.

فَإِنَّ اللهَ لَغَنِي حَمِيدٌ))[١]

ألا وَقَدْ قُلْتُ الذي قُلْتُ عَلى مَعْرِفَةٍ مِنّي بِالخِذْلَةِ الَّتِي خامَرَتْكُمْ ، وَالغَدْرَةِ الَّتِي اسْتَشْعَرَتْها قُلُوبُكُمْ ، وَلَكِنَّها فَيْضَةُ النَّفْسِ ، ومنية الغَيْظِ ، ونفْثَةُ الصَّدْرِ ، ومعذرَةُ الحُجَّة !!

فَدُونَكُمُوها ، فَاحْتَقِبُوها دَبْرَةَ الظَّهْرِ ، مَهِيْضَةَ العَظْمِ ، خَوْراءَ القناةِ ، نَاقِبَةَ الخُفّ ، باقِيَةَ العارِ ، مَوْسُومَةً بِغَضَبِ الله ، موصولةً بشَنارِ الأَبَدِ ، متصُلَةً بِنارِ اللهِ المُوقَدَةِ ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلى الأَفْئِدَة .

فَبِعَيْنِ اللهِ ما تَفْعَلُونَ ، واعملوا إنّا عاملون ، وَانْتَظِرُوا إنّا مُنْتَظِرُونَ[٢]، وَأنا ابْنَةُ نَذِيرٍ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ[٣]، ((فكِيْدُوني جَمِيْعاً ثُمّ لا تُنْظِرُون))[٤] ، ((وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ))[٥].} } .إنتهت خطبة الزهراء عليها السلام[٦].

١ــ أصل الآية المباركة : ((وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)) إبراهيم (٨) .

٢ــ مأخوذ من الآيتين المباركتين : ((وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ)) ((وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)) سورة هود / الآيتان رقم ١٢١، ١٢٢.

٣ــ قولها هذا سلام الله عليها مأخوذ من الآية المباركة ((قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)) سبأ (٤٦) .

٤ــ من الآيتين المباركتين : ((إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)) ((مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ)) هود (٥٥).

٥ــ الشعراء / ٢٢٧ .

٦ــ نحن نقلناها في الجملة ، فهناك بعض الإختلاف في بعض الكلمات ، وفي تأخير بعض الجمل وتقديمها،لاختلاف النقل في ذلك ، حتى أنَّ مثل الشيخ الصدوق عندما نقل بعضاً منها في علله للشرائع، في أحد رواياته ، ثم ذكر طريقاً آخر فثالثاً فرابعاً قال بعد ذلك : ص٢٤٩ (وزاد بعضهم على بعض في اللفظ) فلذا نعتذر لعدم تخريجها ، بصورة أدق ، فالمجال لا يسع ذلك ، ولها مقام آخر كما هو معلوم.

ونقلنا ذلك كله ، لبيان موقف المرأة المثال ، في الإسلام ، وشدة موقفها من الباطل ، وردعها له ، ودفاعها عن الحق ، وأهله ، من دون تردّدٍ ، ولا وجلٍ .

فمع كونها أصبحت وحيدةً بعد أبيها ، واستُضعف بعلها ، وكادوا يقتلونه، إلا أنها لم تخش من الضّلال ، وأدّت دورها ، بأحسن وأكمل صورة ، دفاعاً عن الحقِّ ، وأهله ، مِن دون أن تخدش بحياءِ المرأة ، وعفَّتها ، وكبريائها ، ومن دون أن تأخذها في الله لومة لائم .

فألقتِ الحجة على القوم ، وبيّنت لهم ما فاتهم من رغيد العيش ، في الدنيا ونعيمها ، وأجر الآخرة ، وثوابها ، ورضوان الله الأكبر ، وألزمتهم بها ، ووضحت لهم ما هم قادمون عليه من أيامٍ سودٍ ، ووبالٍ ، وما سيواجهوه يوم الحساب ، من طرد وإبعاد ، وهو لعلَّه ما ورد في روايات الحوض المتواترة عند المسلمين ، والتي ذكر عدّة منها "صحيح البخاري" .

ولنستخرج بعض دررها منها :

صورة المسلم الحقيقي في بيان الزهراء عليها السلام

هاهيَ تستغل الموقف ، وإن كان موقفاً مؤلماً لها ، وعصيباً مزعجاً ، لكنها ما تركت الفرصة لِتَفُوتَها ، فاستغلَّتْ ما ارتكب القوم من نقضٍ لسنن السماء ، حتى لا تضيع فكرة التدبّر للأجيال الآتية ، حتى لو ضاعت عن هذا الجيل المتخاذل عن الحق ، لِترسم صورة المسلم الحقيقية ، ومعالم شخصيته ، ومنها يتضح أنّ كلامها ، كمشيتها حيث ذكروا أنها جاءت ما تَخْرِمُ مِشْيَتُها مِشْيَةَ رسول الله ﷺ، فكلامها ما يخرم كلام رسول الله ﷺ، وهديُها ما خرم هديَه ، أليس هو القائل ﷺ :

(فاطمة بضعة مني .)[١]:

فَجَعَلَ اللهُ الإيمانَ تَطْهيراً لَكُمْ مِنَ الشِّرْكِ :

المؤمن بعد تفكُّره ، وتدبّره في آيات الله المختلفة ، سيكون إنساناً موحداً : وهو ما عبّرت عنه ،عليها السلام، بالتطهير من الشرك ، فهو تطهير من كل سوء وخبث، فيكون نظيفاً في أفكاره ، نظيفاً في أعماله ، نظيفاً في أقواله ، فيمتنع عن إتباع الشهوات والغرائز ، فيكون بعيداً عن المهالك .

ولا يعبد الأشخاص فيُسْتَغلُّ، فيكون أداة طيِّعة في أيدي المجرمين.

(وَالصَّلاةَ تَنْزِيهاً لَكُمْ عَنِ الكِبْرِ) :وإذا كان عبداً لله امتثل ، وإذا امتثل أوامر الله ، صلّى ، وبالصلاة سيُنزع رداء التكبر .

والتكبر هو الذي يدمِّر الخلق ، ويحطه حتى لو ارتفع ، وما هوى بإبليس إلا التكبر .

وكأنّ دواء التكبر هو الصلاة ، ولذا عندما امتنع منها إبليس هلك .

وإذا خلع رداء التكبر سيكون متواضعاً ، وبالتواضع تزداد وتنمو الصِّلات.

(والزَّكاةَ تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ) : وَنَماءً في الرِّزْق ، وسيُزكّي أمواله ، وإذّا زكّى زكا.

فيكون غير بخيل ، فيحدث الانسجام بين الناس ، فينمو الرزق .

(والصِّيامَ تَثْبيتاً للإِخْلاصِ) : وبالصيام سيكون هناك الإخلاص ، وإذا

١ــ ورد بهذا اللفظ ، ولكن بإضافات مختلفة في كثير من المصادر ، منها : صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق / باب مناقب قرابة الرسول ؛ صحيح مسلم / باب مناقب فاطمة (عليها السلام) ؛ مسند أحمد / ٤ / ٣٢٣ ، ٣٢٨ ؛ المستدرك على الصحيحين / ٣ / ١٥٩.

كان مخلصاً طهر من الرياء ، وما يُريد به إلا الله .

فتنمو عنده ملكة الإخلاص .

(والحَجَّ تَشْييداً لِلدّينِ) : فإذا أخلص ذهب لله ، ولا ينتظر إلى أن يموت فينقلب لله ، ولا يكون الذهاب لله إلا بالحج ، فإذا حجّ شيّد دينه .

(وَالعَدْلَ تَنْسيقاً لِلْقُلوبِ) : فإذا أخلص ، شيّد دينه ، ولا يكون إلا بالوحدة، والتآزر ، والمحبة .

فلا يؤدي فرائضه فحسب ، بل سيقيمها كما أرادها مَن أمر بها .

وإذا أقامها نشر العدل ، فتطمئنُّ القلوب ، فتكون كلها سوية ، وسويّة .

وإذا علمنا بأن أساس الملك العدل ، فسنعلم ما سيكون عليه الأمر مِن حياةٍ منظّمةٍ، إذ العدل باختصارٍ ، وَضْعُ الشَّيءِ في موضعه .

فإذا شعر بالعدل ، شعر الكل بالأمان .

(وَطاعَتَنا نِظاماً لِلْمِلَّةِ، وَإمامَتَنا أماناًمِنَ الْفُرْقَةِ) : فإذا شعر بالأمان ، استطاع أن يتذوق الحياة ، وإذا تذوقها اعتزَّ بها ، وأراد بقائها بالعدل والإنصاف، وعدم التفرق .

ولن يكون إلا بالرجوع لثوابت علميةٍ ، وعملية .

وخلّف رسوله ﷺ ذلك .

جعل ذلك في الثقلين كتاب الله ، وعترة رسوله ﷺ.

فخلّف الدليل الذي هو الكتاب .

وخلّف المُرشِد للدليل ، الذي هو أهل البيت عليهم السلام .

فانحصر الأمر بهم سلام الله عليهم ، فهم أدرى بما جاء في كتاب الله .

ولذا قالت سلام الله عليها ، فالثوابت طاعة أهل البيت عليهم السلام ، فتنظم الملة على ذلك ، وتكون إمامتهم أماناً من الفرقة .

فلا يخرج كل يوم "خارجي" ، "قاعدياً" ، كان أو "حامضياً" ، "داعشياً"، أو "راعشياً" ، فسيكون أهل البيت عليهم السلام ، أماناً من الفرقة .

(وَالْجِهادَ عِزاً لِلإِسْلامِ) : ويكون ذلك المجتمع عزيزاً بالجهاد ، فلا يكون ذليلاً يخاف أن يتخطفه الناس مِن حوله .

وَالصَّبْرَ ، مَعُونَةً عَلَى اسْتِيجابِ الأَجْرِ،فيكون صبوراً.

(وَالأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعامَّةِ) : وبهذا يكون قدوة لغيره فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

وبذلك مصلحة عامّة الناس.

فحينئذٍ يكون بطريق أولى معتنياً بالأقرب فالأقرب فيكون :

(وَبِرَّ الْوالِدَيْنِ وِقايَةً مِنَ السَّخَطِ) : باراً بوالديه .

(وَصِلَةَالأَرْحامِ مَنْماةً لِلْعَدَدِ) : ويكون وصولاً لأرحامه .

(وَالْقِصاصَ حِصْناً لِلدِّماءِ) : ليسود الأمن فالقانون ، فتحقن دماء الناس وأعراضهم ، ومن لم يرتدع بذلك كان القصاص له رادعاً .

(وَالْوَفاءَ بِالنَّذْرِ تَعْريضاً لِلْمَغْفِرَةِ): فيكون باراً بقسمه ، محافظاً على وعده.

(وَتَوْفِيَةَ الْمَكاييلِ وَالْمَوَازِينِ تَغْيِيراً لِلْبَخْسِ) : فيستقر البلد بالتجارات

الصحيحة ، ويرتفع الغش .

(وَالنَّهْيَ عَنْ شُرْبِ الْخَمْرِتَنْزِيهاً عَنِ الرِّجْسِ) : ويمكن أن يكون هناك طريق للشيطان ، والإعوجاج ، فحصانة ذلك كله بالعقل ، وهناك عدو له شديد، ما هو إلا الخمرة التي تذهب به ، فلذا نهى الله تعالى عنه ، حتى يخلص المجتمع كلاً من الرجس .

(وَاجْتِنابَ الْقَذْفِ حِجاباً عَنِ اللَّعْنَةِ) : فلا يقذف المحصنات ، ولا يتعدى على الناس ، فيصون لسانه .

(وَتَرْكَ السِّرْقَةِ إيجاباً لِلْعِفَّةِ) : ويصون يده .

فيكون نظيفاً طاهراً ، كما أراد الله له أن يكون .

ثم رجعتْ لِما بدأت به هذه الفقرات العظيمة ، كوصية لقمان لابنه ، فإنه أمره بالتوحيد بدواً وختم به فقالت :

(وَحَرَّمَ الله الشِّرْكَ إخلاصاً لَهُ بالرُّبُوبِيَّةِ، ((فَاتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)) ، وَ أطيعُوا اللهَ فيما أمَرَكُمْ بِهِ وَنَهاكُمْ عَنْهُ ، فَإنَّه ((إنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ)) .) . إنتهى .

لتبين أخيراً قيمة العلماء ، وحقيقتهم ، تشجيعاً لطلب العلم ، والمعرفة .

فإذا كان الكل في هذه الدائرة ، وعلى هذا المنوال ، قد تربى في هذا الجو ، وعاش فيه ، وفهم مغزاهُ ، وأبعاده ، فلك أن تتصور أيّ مجتمع سيكون !

فانظر لِبيانِها أسرار التشريع ، وتأمَّل فيه !!!!!

وهذا غيض من فيض .

الفصل الثامن

مثال الأنثى

وللتفكيك بين الحق والباطل ، وبأن المرأة كائن مستقل ، لا يُنْقِصُ الرَّجلُ مِن قدْرها ، ولا يزيد فيه ، إلا بما هيَ نفسها فاعلة ، ومقدمة ، ولا ربط بينهما أصلاً في هذا ، وإن كانا زوجين :

ضرب الله مثلين لنوعين من النساء ، في سورة واحدة ، ذَكَرَ للجانب السلبي مثالاً ، وللجانب الإيجابي مثالاً:ونكتفي الآن بالجانب الإيجابي :

((وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آَمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ))[1]

فهذه الإمرأة الأولى التي ضرب الله مثلها ، فمع كونها زوجة فرعون ، ذلك الذي ادّعى الإلوهية ، لكنها بقت تلك الإمرأة المؤمنة ، فلا علاقة لها بإجرام بعلها ، فكلٌّ له شأنه ، وكلٌّ له حسابُهُ ، وعليه وِزْرُهُ .

والثانية : تلك التي ملأت جانباً مهمّاً في كتاب الله سبحانه ، قال تعالى :

((وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ))[2]

١ــ التحريم / ١١ .

٢ــالتحريم / ١٢

هذه المرأة العظيمة التي نشأت ببيئة طيبة ، وتكونت في رَحِمٍ طاهرٍ، حيث تتبين علاقة امرأة عمران ، التي هي أمُّها ، بالله سبحانه ، مِنَ الكلماتِ التي نقلها القران الكريم عنها ، في دعائها ، حيث يقول : ((فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ))

((فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ))[١].

فهي تربّت في مكانٍ عباديٍّ ، يلحظها فيه نبيٌّ كريمٌ من أنبياء الله .

ولِطهارتها ، وعلوِّ شأنها عند الله سبحانه وتعالى كانت لها خصوصية ، لفتت نظر نبي الله ، حيث أنه كان كلّما ، وليس مرَّةً ، أو مرّتين ، كلَّما دخل عليها وجد عندها طعاماً ، ولّما سألها أجابت هو مِنْ عندِ الله ...

فما أروعها من امرأة ! وما أقربها من الله ! وما أعزّها عنده !

ولِذا جعلها وعاءآ لذلك النبيّ المُختار ، فجعلها آيةً، بنفسها ، وآية ، بابنها، وكان ابنها ، آيةًكذلك .

قال تعالى : ((وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آَيَةً وَآَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ))[٢]

وَدَافَعَ عنها ، أيَّ دفاعٍ!

١ــ آل عمران / ٣٦ ، ٣٧ .

٢ــ المؤمنون / ٥٠ .

كان الأمرُ عظيماً ، لم يستوعبْهُ إلَّا مَن امتحن اللهُ قلبه للإيمان .

فانشقّوا ، مِنهم من أشار إليها بالسوء ، فردعه قائلاً :

((وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما))[1]

ومنهمْ مَنْجعله إلاهاً ، فردّه بقوله :

((يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهَّ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهَّ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهَّ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهٌ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهَّ وَكِيلًا))[2]

وقال : ((مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ))[3]

وبأبسط دليل ، وأخصر عبارة ، بيّن أنهما ليسا إلهين .

بأكلهما الطعام .

فأكلُ الطعام ، دليلٌ على الحَدَثِ .

إذ لا يأكل الطعام إلا مَن يحتاجه ، لِجوعه، وافتقاره له ، والإله لا يحتاج لِشيءٍ ، ولا يفتقر لِشَيءٍ ، هذا أوّلاً .

وثانياً : إشارة لطيفة ، ومهذَّبة ، لِما يترتب على ذلك من حالاتٍ، يمرّ بها مَن

١_ النساء / ١٥٦ .

٢_ النساء / ١٧١ .

٣_ المائدة / ٧٥ .

يأكل الطعام .

فهذه الصفات كلها من صفات المخلوق ، والمربوب؛ وليست من صفات الإله بشئ .

وخصَّصَ القرانُ ، ما يقرب مِن سورةٍ كاملةٍ ، في هذه المرأة الطاهرة ، وهي السورة التاسعة عشر من سور القران الكريم .

مِن آية ٤٢ وإلى قوله تعالى...((وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَّ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)) ((يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)) ((ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)) ((إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَّ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ))[١].

ونكتة أخرى ، إنه لم يذكر اسم امرأة صراحةً في كتابه المنزل ، إلّا اسم هذه النقيّة ، السيدة مريم ، فذكر :

اسمها: { وَإِنِّي سَمَّيْتُهَامَرْيَمَ}.

واسم أبيها: {وَمَرْيَمَابْنَتَ عِمْرَانَ }.

ونسبها : {إِنَّ اللهّ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنبَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }[٢]

وبيّن نشأتها وتعليمها: ((فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً

١ــ آل عمران / ٤٥ .

٢ــ آل عمران/ ٣٣– ٣٤.

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا))[١]

ومكانتها: ((وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَامَرْيَمُإِنَّ اللهّ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ))[٢]

وبيّن عظمة ابنها ، حاملةً لهبين يديها ، وبهذه المنزلة التي هوَ عليها ، نسَبَهُ إليها ، فَبَيّنَ عظمتها كذلك ، عليهما السلام:

((قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهَّ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً{٣٠} وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً{٣١} وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراًشَقِيّاً{٣٢} وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَأُبْعَثُ حَيّاً{٣٣} ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِيَمْتَرُونَ{٣٤}))[٣]

وقد ورد اسم السيدة مريم صراحة في القرآن الكريم :٣١ مرة ، وورد بكونها أم المسيح بالضمير العائد عليها ثلاث مرات ، بصيغة (أُمّه) : المائدة/ ١٧ ، المائدة / ٧٥ ، المؤمنون / ٥٠ .

فيكون المجموع : ٣٤ مرّة .

وإذا أضفنا ضمير المخاطب الذي خاطب به الله نبيه بقوله تعالى ((والدتك)) في سورة المائدة / الآية ١١٠ .

وضمير المتكلم في الآية المباركة ((وَإِذْ قَالَ اللهُّ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهَّ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ

١ــ آل عمران / ٣٧ .

٢ــ آل عمران / ٤٢.

٣ــ آل عمران .

مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ))[١] .

والضمير الثالث ، والضمير الآخر في ((كَانَا يَأْكُلَانِ)) ، العائدين عليه وعلى أمه ،عليهما السلام ، في قوله تعالى :

((مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ))

فسيُصبح المجموع = ٣٨ مرة .

وإذا أضفنا إلى ذلك الضمائر العائدة عليها في قوله تعالى : ((((فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ))

((فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ))[٢]

وعددها ثلاثة عشر ضميراً ، في آيتين فقط ، فالمجموع = ٥١ مرّة .

ورد ابنها مقروناً باسمها ، من دون ذكر اسمه المبارك : مرتين . المؤمنون/ الآية ٥٠ ، الزخرف / الآية ٥٧ .

وبلفظ (الْمَسِيح ابْن مَرْيَمَ) : خمس مرات : المائدة / ١٧ ، مرتين فيها ،

١ــ المائدة / ١١٦ .

٢ــ آل عمران / ٣٦ ، ٣٧ .

المائدة / ٧٢ ، المائدة / ٧٥ ، التوبة / ٣١ .

وبذكر اسمه الصريح مع اسمها المبارك (عِيسَى ابْن مَرْيَمَ) : ثلاثة عشر مرّة : سورة البقرة / ٨٧ ، ٢٥٣ ، المائدة / ٤٦ ، ٧٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ، سورة مريم / ٣٤ ، الأحزاب / ٧ ، الحديد / ٢٧ ، الصف / ٦ ، ١٤ .

وبلفظ (الْمَسِيح عِيسَى ابْن مَرْيَمَ) : ثلاث مرات : آل عمران / ٤٥ ، النساء / ١٥٧ ، ١٧١ .

وجاء اسمها مجرداً : تسع مرات : آل عمران / ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، النساء / ١٥٦ ، ١٧١ ، سورة مريم / ٢٧ .

وجاءت منسوبة لأبيها ((...مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ)) : مرة واحدة سورة التحريم / ١٢ .

ورد ذكرها عليها السلام في (١٢) إثني عشر سورة من القران الكريم .

سورة البقرة ، سورة آل عمران ، سورة النساء ، سورة المائدة ، التوبة ، سورة المؤمنون ، سورة الزخرف ، سورة التحريم ، سورة الأحزاب ، سورة الحديد ،سورة مريم ، سورة المؤمنون ، سورة الصف .

الكلام الذي ورد في القرآن الكريم على لسانها:

قال تعالى:{فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }[1]

١ــ آل عمران:٣٧.

قال تعالى:{ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ }[١]

وقال تعالى:{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً{١٦} فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً{١٧} قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً{١٨} قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً{١٩} قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً{٢٠} قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً{٢١} فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً{٢٢} فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً{٢٣} فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً{٢٤} وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً{٢٥} فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً{٢٦}[٢]

١ــ آلعمران:٤٧ .

٢ــ سورة مريم .

الخاتمة

كتبت في هذا الموضوع في زمنٍ يُستَغّلُّ فيه دينُ الله ، بأبخس الثمن .

فبعض المسلمين الذي يقبع في الغرب ، قد يستغل ظروف الدول الغربية ، لكي يُعَذّبَ مَنِأتمنه الله تعالى عليه ، فيعذّب زوجته بالإعراض ، الذي قد يصل إلى الإعراض التام ، الذي لا يُحسد عليه ، لا لشيءٍ إلا ليعذبها .

فيستغلُّ ما جعله الله تعالى راحةً للبال ، للإنسانِ المُتهالِكِ ، في حالات تعذّر الراحة إلا به ، وهو الطلاق ، إذْ أنَّ أمر الطلاق قد جُعِلَ بأبعد الطرفين عاطفة ، وأشدّهما شكيمة ، حتى لا يتهدّم هذا البنيان العظيم ، إلا في حالات استثنائية ، علاجية ، ولم يجعله في يد الطرفين حتّى يقلَّ وقوعه إلى النِّصْف ؛يستغلّ هذا الأمر ، إذ أنَّ وقوع الطلاق بيده ، فيمتنع عنه ، وفي نفس الوقت ، يكون بعيداً عنها ، أو معرِضاً ، أييجعلها معلَّقة ، على التعبير القراني ، الذي نهى المؤمن أن يرتكب ، ويركب هذه الحالة ، ولكنه يُعْرِض عن أمر الله تعالى أيضاً ، فيقع في الحرمة ، من جهةٍ ثانية .

وتأتي أغلب الحالات من سوء الخلق ، أو من الحيلة ، ويجمعهما أنه قد ظلمها ، بالضرب ، أو بالشتم ، أوبأنواع التعديات ، وكأنها سجينة عنده ، وفريسة قد وقع عليها ، لا يريد لها أن تتحرر من يده .

وفي بلاد الغربة ، تضاف إلى المعاناة معاناة ثانية ، لو أنها اتصلت بالشرطة لكي يردعوه عن أذيتها ، ويحجزوه عنها ، بعد أن صارت هنا بلا معين ، فهي بعيدة عن الوطن والأهل ، ولا أحد يُساعدها من ظلم هذا الطاغية ، الذي يقبع فوق رأسها .

فتزداد الشِّقّةُ ، وينقم عليها ، وكأنّها قد جاءت بالمصيبة العظمى ، والطّامة الكبرى .

ولا يلتفت بأنّه السبب في ذلك ، والمرء مجبول على الدفاع عن نفسه ، وهو قد أتى بها وحيدة لا عون لها إلا الله الذي هو بعيد عن ذهنه ، وفي حالاتٍ تشتد الأزمة ، فتتصوّر أنّ خلاصها منه يكون بهذا الطريق ، حتى لا يؤذيها أكثر .

وإن كان هناك حالات أخر ، تستغل فيه الزوجة هذه الحماية ، وتفرط فيها ، لِتربِك الزوج ، لِخبثها ، أو لكراهتها له .

وإن كانت الحالات الثانية أقل من الأولى ، ولكنها موجودة على أيّة حال .

هذا إذا كان قد تزوجها ، واجتمع معها في بيت واحد ، وإلا في بعض الحالات يتركها ، حتى قبل الزواج .

خاصة إذا ظنَّ أنه قد استُغِلَّ ، أو يفعل ذلك من ثقل المهر ، فهو لا يريدها ، ولكنّ ثقل المهر يمنعه من الطلاق ، أو يريد الأطفال ، وهي تريدهم ، فيحدث الشدّ والرد .

وتظهر هذه الأفعال هنا ، في هذه الدول عند الرجل ، حيث لا كبير فيحترمه ، ولا قوي فيخشاه ، ولا عشيرة فتردعه ، ولا عرف فيمنعه ، ولا حياء فيحجزه ، وأرض الله واسعة ، يطير حيثما يشاء ، ويحطّ أينما يريد ، وهيَ قابعة في البيت تنتظره .

فتكون كالأسيرة ، وإذا اشتكت للحاكم الشرعي ليخلصها ، يكون بعضهم حينئذٍ حاوياً لحيلٍ قد تكون سبباً في تطويل القضية ، وتشويشها ، فلا يستطيع حينئذٍ حتى الحاكم أن يصدر حكماً بطلاقها ، فتبقى المسكينة معلقة .

ولا يخشى الله الذي أمره قبل أي أحد :

((ولا تذروها كالمعلقة))

وهنا نهي ، والنهي يدل على الحرمة .

وبعض المتدينين منهم يبرر ذلك بالأطفال ، وببقية الحقوق ، وقد يكون صادقاً ، إلا أنه خلاف المروءة والإنصاف أن يتركها كذلك .

فليطلقها ، ثم يتفاهمان على الأمور الأخر ، فهذا على أقل تقدير هوَ أقرب للتقوى .

هذه مصيبة بعض الرجال .

وأما مصيبة بعض النساء ، فإنها تريد الرجل عبداً ذليلاً ، وتابعاً مطيعاً ، فتُحصي عليه أنفاسه ، وتستغل وجود الأطفال ، وتَعَلُّقَ الوالد بهم ، أو تعلقه بها، أو بهم جميعاً ، فتضغط عليه أيّما ضغط .

وبعضهن تستغل الرجل لتأتي إلى هذه الدول ، ثم تثير المشاكل ، لِتخلص من هذا الزواج المصلحي ، ويشعر الزوج بذلك ، فتثار حفيظته ، فيتركها معلقة.

وبعضهم يستغل المرأة ، وأهلها ليأتي إلى هذه الدول ، ثم يركب الموجة ، فيريها وأهلها كما يقولون نجوم الظهر ، غير مبال بما قدّم له أهلها من معروف ، وإحسان .

وهذان الصنفان تظهر صفاتهما السيئة بعد المجئ والإستقرار ، ناسين ما أنعم الله عليهما من خير .

وربّما يستغلان طيبة الجانب الآخر ، وصفاءه .

ويزداد الأمر سوءاً حينما تهجر الزوجة زوجها في الفراش ، في هذه البلاد المنفتحة ، لعلمها بالتزامه الديني ، وأنه لا يقتحم الحرام ، فتعاقبه أشدّ المعاقبة ،

إذ هو بحاجتها ، ناسية ما أوجب الله عليها من أمر .

وكأنّ الأمر الإلهي كان معكوساً .

فيبقى المسكين يتلوّى ، لا يعرف ماذا يفعل .

وإذا لجأ هنا إلى طريقٍ حلالٍ ، كان يأنف من الولوج فيه ، ولكنه أُجْبَرَ عليه، بعد أن منعته زوجته من الفراش ، لكي لا يقع بالحرام ، ويتوسخ به ،وأحسّت به، ولو من بعيد ، أو توهمت ذلك ، بلا أي دليل ، فسينقلب كل شئ .

فيحدث ، ويكبر ، ويزداد في ظل هذه الظروف ، النزاعُ الأسَري .

فيُتّهم الرجل بالخيانة ، ويزداد الأمر سوءاً .

ولو عَبَدَتِ الله حقاً ، وأطاعته ، وحسنّتْ بعضَ صفاتها ، وتفادت تفاقم الأمور ، وبادلته المحبة ، وجعلته يحسّ، ويلمس من أنها الطريق الشرعي المعبّد الوحيد الآمن له ، لَمَا كان يحدث كلُّ هذا .

فلو سدّتْ عليه السبيل الآخر المتوهم ، أو الحقيقي ، بِكلمتها الطيبة ، وابتسامتها الرقيقة ، وحضنها الدافئ ، وعشّها الملئ بالخير ، والطافح بالجمال ، والروائح الطيبة العطرة ، لردّ إليها سعيداً مُعافى ، وربما سيشعر بالخجل والحياء منها ، أو بالخوف من فقدان هذه السعادة التي هيّأها الله تعالى له .

وبذلك تحافظ على بيتها ، نفسها ، أطفالها وزوجها .

وهناك مع الأسف الشديد ، قسم من الآباء والأمهات يُدْخِلُونَ أنوفهم ، في حياة إبنهم ، أو إبنتهم ، ظناً منهم أنهم يصنعون خيراً ، وإذا بالأمور تزداد سوءاً ، وإذا بالبيوت تتهدّم .

فلْيَلْتَفِتِ الجميع ، والله ألعاصم .

لا سلطة للرجل على المرأة خارج نطاق الأسرة

قد يظن من لا معرفة له بدين الله ، أنّ الله قد سلّط الرَّجل على المرأة :

فللأخ أن يزوّج اختهلِمَن يشاء هو .

ولابن العم ، أو الخال ، أو القريب أن ينهى ، فلا من أحد يتقدم لخطبة بنت عمّه أو خاله ، أو قريبه ، بل لا يجرئ .

ولشيخ العشيرة أن يزوجها كما يحلو له ، وخاصة فيما لو اعتدى واحدٌ من عشيرته على واحد من عشيرة أخرى ، لِأجل المُصالحة .

وهكذا .

وقد يظنُّ الرجل بعد الزواج بها ، من أنه كزوجٍ لها ، يستطيع أن يفعل بها ما يشاء ، وكما يريد ، وليس لأحد منعه ، أو إيقافه عند حدّه ، فله السلطة ، والقِوامة التامة المطلقة عليها ، فهو المالك لها ، والمستعبد ، ولا من رقيبٍ ، ولا من حسيب .

بل ترى بعضهم يحرمون الأنثى من الإرث ، ويحجبوه عنها ، بشتى الوسائل ، وتعدد الطرق ، وبأمكر الحيل .

ويأخذها الحياء ، والخجل لكي تطلب منهم حقها ، فيضيع حقها بين الحقوق .

وكل ذلك ، لو تمعنا فيه ، هو امتداد لِما كانت عليه الذهنية الجاهلية قبل الإسلام .

وكما يعلم أن تطبيق الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله كان في أيدٍ بَعْدُ لم تهضم الإسلام كنهج ، ولم تعه لدرجة النضوج الفكري التام له ، ثم أصبحت القيادة في أيدي غير أهله ، أصبح في أيديهم لا لشئ سوى لأنهم استلموا السلطة ، فبقيت كثير من رواسب الجاهلية في المجتمعات ، مع الأسف الشديد ؛ وهذه بعض المخاطر التي ذكرتها الزهراء عليها السلام في خطبتيها ، بعد شهادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد مرت عليك خطبتها الأولى في المسجد ، فارجع البصر فيها، لتجد ما توقعته بيّناً واضحاً .

وإلا فبربك كيف يؤمن بالإسلام ، وهو يجبر الأخت ، أو بنت العم ، على الزواج من زيد ، أو عمرو؟!

أو يمنعها إرثها ؟!

كيف يؤمن ويعطي أخته أو بنت عمه ، بكلِّ رجولة !! لِناسٍ غرباء ، لا لشئ إلا لأنه هو بنفسه اعتدى عليهم ، أو ابن عمها ، أو خالها ، ولا ذنب لها ، إلّا أن هؤلاء المعتدين من قومها ، وعشيرتها ؟!

كيف يؤمن بالإسلام ، وهو يضربها ، ضرباً مبرحاً ، لا لشئ ، إلّا لأنها ارتكبت ما لايريده هو ؟!

كيف يؤمن بالإسلام ، وهو يمنعها من الزواج لأنها رفضت أن تتزوجه ، أو أن تقبل الزواج ممّن اختاره هو ؟!....

وهكذا لو أردتُ أن أسوّد هذه الصفحات بأمثال ذلك ، فالأمر هيّن وبسيط .

ولحدّ يومك هذا ، مع الأسف ، تجد ذلك مسطوراً في عالمنا الواقعي الخارجي .

والويل لها إن رفضت ذلك .

فأيُّ إسلام يتحدثون عنه ؟

والأمَرُّ والأدهى هؤلاء القصّاصون والكتّاب ، الذين لا دين لهم ، ولا ضمير يصوِّرون أن هذه القصص هي دين الله ، والله ورسوله أمر بذلك ، وهم لا يفقهون من الدين إلا اسمه ، ولا يخافون المعاد ، ولا يخشون الله أبداً ، حتّى يصل الأمر إلى أستراليا ، إلى جامعاتها المتطورة ، مع الأسف ، حيث يدرّسون اللغة العربية للطلاب ، فيعطونهم تلك الروايات والقصص ، ليتعلموا منها اللغة العربية ، ولا أدري أيَّ لغة عربية يتكلمون عنها ، واللغة التي يقتات عليها هؤلاء المساكين ، ما هي إلّا اللّهجة المصرية ، أو كلام عوام العرب في سائر البلاد ؟ ولا تمتُّ للغة العرب بشئ .

ولا يكتفي بعض التدريسيين بهذا فقط ، بل يرسمون للطلاب من أن ما في هذه القصص مِن أعمال تشمئز منها النفس ، وتأباها الفطرة ، ويمقتها الحق ، ولا يرضاها الإسلام بأيِّ حال من الأحوال ، يدّعي هؤلاء من أن ما ترسمه القصص تلك ما هو إلا الإسلام بعينه ، وهذا هو الإسلام .

فأيّ إسلام هذا ؟

نعم إنه إسلامكم أنتم ، الذي انتهجه آباؤكم ، وأجدادكم ، أو آباءُ أولئك الذين خانوا الله ورسوله ، ولم يرقبوا في عباد الله إلاً ، ولا ذمّة .

وإن لم يكن ، فما هو إلا الإسلام الذي يريد أسيادكم أنتم ، أن يظهروه للناس ، على أنه الإسلام ، ليبتعد الناس عن الإسلام الحقيقي .

فالإسلام برئ من هذا كله ، براءة الذئب من دم يوسف .

وأقرب مثال لهؤلاء الظلاميين هؤلاء الذين يقتلون الناس ، ويذبحونهم ، باسم الإسلام ، في وضح النهار ، والكل يعلم من أن الإسلام برئ من هؤلاء ، وأولئك .

ويدرون أو لا يدرون من أن ذلك الذي يُروى في القصص أغلبه ليس من الإسلام بشئ ، ولكنه الإرث الأسود لتلك الأجيال المتعاقبة التي صارت تبتعد عن الإسلام شيئاً ، فشيئاً ، بابتعادها عن آل البيت عليهم السلام ، المصدر الذي ينقّي كل هذا الكم الهائلمن الخيالات والأوهام .

وقد ترسَّخت هذه الضلالات في أذهان العامّة من الناس ، لعدة أسباب من أهمها :

ابتعادهم عن نهج الحق .

وتأثير العادات القبلية ، والعشائرية في حياتنا اليومية ، حتى ظُنّ ما ليس من الشارع ، أنه منه .

وبعد ظهور التلفزيون فتلك الأفلام الرخيصة ، والمسلسلات ، التي أثَّرتْ أثرها بالعقلية الأعرابية ، التي تتربع فوق رؤوس أغلب الناس .

فيطلُّقها ، بكلمة واحدة ، ولو في حال غضب أو جنون ، ويضربها لأتفه الأسباب .

وكأن المرأة سلعة وبضاعة ، ومتاع يُلتذ به ، ولنا أن نفعل بها ما نشاء ، كيف نشاء .

من قال لهم ذلك ؟

من علّمهم هذا ؟

عن أيِّ شرع يتكلمون ؟

وكثير من الأسئلة إلى أن نصل إلى نتيجة مؤداها : أن هناك إثنين قد ظُلِما ، في هذه الحياة الدنيا ، وفي زمننا على أقل تقدير ، أشدَّ ظلامة ، وما هما إلّا : الإسلام ، والمرأة .

وأكتب كتابي هذا مركزاً على الزوجة فقط ، وإلا فالحديث طويلٌ طويل .

أقولكما أوجب الله تعالى للزوج حقوقاً فقد أوجب للزوجة حقوقاً أيضاً ، وجعل على الزوج واجبات عليه القيام بها ، كما جعل للزوجة بالمقابل ما تسير به الحياة .

وصحيح أن الزوجة عليها أن تطيع الزوج ، لكن لا أن تكون عبدة له ، فهناك فرق يُدركه حتى من لم يعش زمن العبيد .

هناك فرق بين الزوجة والأمة ، وإذا لم تعلم فتعلَّم ، وليس التعلم بعيب .

فأنت أخذتها زوجة ، ولم تملكها أمَة ، وفرق بين المقامين ،على المرء إن أراد أن يكون صالحاً أن ينتبه له .

فالزوج الذي يريد أن يمسخ زوجته من شخصيتها ، ومن هويتها ، ليس له ذلك مطلقاً .

أو يُريد أن يجعلها بالقوة تؤمن بما يؤمن به ، وتكفر بما يكفر به ، ليس له ذلك أبدا .

فضلاً من أنه إذا أرادها أن تتصرف وتتحرك كما يتحرك ، وتكذب كما يكذب .....

الإسلام لم يأت بهذا أبدا ، وما عهدناه منه .

هذا تفكير ساذج ، وعشائري مقيت ، وبدوي أرعن .

والإسلام دين تحضّرٍ وتمدن ، وكرامةٍ للأنثى كما للذكر .

وأيّهما فُضِّل فبالحقِّ ، والقسط .

المهم :

هناك حقوق على الزوج ، كما أن هناك حقوقاً على الزوجة .

وبعضها واجب ، وبعضها مستحب .

أما الواجب :

نقدم حقَّ الرجل حتى لا يشعر بأنه قد خُدِش في رجولته : فحقه على الزوجة :

أولاً : تمكينه منها ، وليس لها أن تمنعه إلا لوجه شرعي وعقلائي ، بل عليها أن تزيل المنفرات لو وجدت .[١]

ثانياً : أن لا تخرج من بيته إلا بإذنه ، ولا يكون الحكم مطلقاً ، هنا ، بل مقيد بما إذا كان الخروج منافياً لحقه ، في الإستمتاع المذكور أولاً .

وينتفي ، أو يُخَفّف بالشرط عند العقد .

وكيف كان فالحكم واضح ، لا يتعدى مورده .

١ــ راجع مختلف الرسائل العملية لمختلف المراجع منها : كتاب منهاج الصالحين / المعاملات / أحكام النشوز والشقاق .

ولو كان هناك شرطٌ ، ولو كان ضمنياً في خروجها ، كما لو تزوجها وهي موظفة ، وكان عُرْفُهما قائماً على ذلك ، فليس له أن يمنعها .

كما ليس له أن يمنعها إذا كان الخروج واجباً عليها بقولٍ واحد .

ولكن مع هذا ينبغي للزوج أن يأذن لزوجته في زيارة أقربائها ، وعيادة مرضاهم ، وتشييع جنائزهم ونحو ذلك .

وهذا يُظهِر لنا أنه :

ليس له أن يضرب عليها جداراً كونكريتياً ، ليمنعها من الاتصال بالعالم الخارجي .

فليس له أن يمنعها من الاتصال بأهلها مثلاً ، بالوسائل الحديثة .

و"الإنترنيت" ، و"التلفون" أحسن الأمثلة على ذلك ، فليس له أن يمنعها منهما إن وجدا، ولم يكن ثمة مفسدة في ذلك .

ولكن ليس لها إجباره على فعل ذلك ، كما أنه ليس له منعها من تهيئة ذلك ، لو امتنع منه .

فينقلب عليها عفريتاً لو منعها أن تتصل بمن تريد الاتصال به من أهلها مثلاً ، فمنع عنها "الهاتف" ، وهي قامت بالاتصال بهم .

لأن لها حينئذٍ أن توفر لنفسها وسيلة الاتصال بإذنه ، أو بدون إذنه، إذا لم يكن متضارباً مع استمتاعاته ، فلها أن تشتري كارت تلفون ، أو انترنيت ، أو جهازاً لتتصل به ، وليس له منعها .

وكما له أحاسيسه ومشاعره، فللمرأة كذلك أحاسيسها ، ومشاعرها ، وكيانها.

ولذا صرّح العلماء بأنه لا يحرم على الزوجة أيّ فعلٍ آخر ما عدا الذي ذكرناه ، من الخروج من البيت من دون رضاه ، ودونك الكتب الفقهية ؛ نعم يُقيد كل فعل منها ، وليس هذا فقط ، ألّا يكون منافياً لاستمتاعات الزوج منها .

لا أنه يستمتع بتعذيبها ، أو بغمط حقها ، أو بخدمةِ حتّى مثل أمه أو أبيه ، أوأخته أو أخيه ، فضلاً عن عشيرته التي تؤيه ، أو حتّى بخدمته شخصياً .

كما أنه لا يظن الظان من أن على المرأة أن تقمّ البيت ، وتنظفه ، أو تخيط الملابس ، أو تغسلها ،أوتحوك البسط ، أو تطهرها ، أو تمسح الأرض .

وحتى ترتيب البيت ليس للزوج حق في أن يجبرها عليه .

بل حتى صنع الطعام فضلاً عن تقديمه له ، وكأنها من جواري القرون الماضية ، والسنين الغابرة ،إذ في بعض الحالات ، وإن أصبحت في هذه الأيام من الندرة بمكان ، ولله الحمد،تقف بين يديه كأنها الأسيرة المسكينة ، تنظر لشفتيهمتى يأمرها أن تضع الطعام ، ومتى عليها أن ترفعه ، ومتى تغسل قدميه.

والمضحك المبكي أن المستحب هو بعكس ذلك ، فالزوج ينبغي له إن أراد أن تزداد البركة في بيته ، أن يغسل قدمي الزوجة عند دخولها بيت الزوجية ، هكذا جاءت الروايات .

وعليه أن يوفر لها الطعام ، حتى لو طلبت أن يكون مطبوخاً .

فما أبعدنا عن شرع الله ، وما احوجنا إليه .

ولو قالوا أصبحت خدمتها في بيتها مرتكزاً عرفياً ، خاصة في مجتمعاتنا الشرقية ، فهو شرط ارتكازي ، فيثبت الوجوب عليها ، كما في غيره من الموارد ،

فالجواب ظاهر من أنّ هذا الإرتكاز جاء لأنها تظن من أنه واجب عليها ذلك ، ولا وجوب ، فلا وجوب .

وبمعنى آخر :

الزوجية لم تبنَ على أنه واجب عليها القيام بالأعمال المنزلية ، ولم تُقَيَّد به ، بل إن المتعارف أنها تقوم بذلك بمحض إرادتها ، اختياراً ، أو بتوهم أنَّ ذلك واجب عليها شرعاً ، أو عرفاً ، وكلنا يعلم من أن هذا غير واجب عليها شرعاً ، والثاني مبنيٌ على ثبوت مثل ذلك العرف ، فيلزم الدور ، فيبطل ، فلا إثبات ، ولا وجوب .

وعليه أن ينفق عليها ، حتى لو كانت مَلِيّة .

وعليه أن ينفق عليها ، حتّى لو كان مفلِساً .

حتى أنه لو لم يكن مستطيعاً للنفقة فستبقى عليه دَيناً ، إلا إذا أسقطتها هي ، وتسقطها يوماً بيوم ، إن أرادت إسقاطها .

كما عليه ألا يؤذيها ، بالضرب أو بالكلام أو بالتصرف الظالم لها ، وعليه ألا يهجرها ، فيذرها كالمعلقة ، إن كان يؤمن بالله وبرسوله صلى الله عليه وآله ، وعليه ألا يترك مقاربتها أكثر من أربعة أشهر ، وربما في بعض الحالات أقل من ذلك .

نعم عليها إطاعته بالإستمتاع ، وبعدم الخروج من البيت .

وعليهما أن يساعد كل واحد منهما الآخر على أمور دنياه ، وآخرته .

وألا يؤذي أحدهما الآخر : ففيما جاء عن رسول الله ﷺ :

(مَن كانت له امرأة تؤذيه ، لم يقبلِ اللهُ صلاتها ، ولا حسنةً مِن أعمالِها ، حتّى تعينَهُ وترضيه ، وإن صامت الدهر ، وقامت ، وأعتقت الرقاب ، وأنفقت الأموال في سبيل الله ، وكانتْ أوَّلَ مَن ترد النّار .

ثمَّ قال : وَعلى الرَّجُلِ مثلُ ذلك الوزرِ والعذابِ ، إذا كان مؤذياً ظالماً .)[١] .

والإحترام المتبادل أساس العيش الرغيد .

ولو كانت الحضانة تضرُّ الولد إذا خرج من دفئ حنان الأم ، ضرراً معتداً به ، يجب على الوالد أن يكلها إلى الأم ، وإذا امتنع أجبر على ذلك بواسطة الحاكم الشرعي ، بعد رفع الدعوى إليه .

أو على تقدير آخر أن تكون الحضانة مشتركة إذا لم يتضرر الطفل بذلك .

ولكن نقول بعد كل هذا التشديد :

وأحسن ما يفعله الزوجان هو التفاهم .

فالنصيحة ، النصيحة لهما بالتفاهم .

له بالتفاهم ، وعدم التشدد ، والمطالبة بالحدِّ الشرعي الدقيق ، فيصبحُ من الذين يعبدون الله على حرف .

وإليها يكون الكلام موجهاً نفسه ، عليها بالتفاهم ، وعدم التشدد ، والمطالبة بالحدِّ الشرعي الدقيق ، فتُصبحُ من الذين يعبدون الله على حرف .

بل عليهما بالمودة ، ، والرحمة ، اللَّتين جعلهما الله بينهما ، أن تعامله ويعاملها، وتتجاوز عن سيئاته ، ويتجاوز عن سيئاتها .

١ــ وسائل الشيعة / ج ١٤ / ١١٦ / ح١ .

ولها البيت مملكة ، وله ما وراء الباب ، لِيَجِدَّ ويستعدّ ، لعوادي الدهر وغوائله ، محافظاً على أسرته ،فهيَ الأمانة الثقيلة التي أخذها في عنقه ليرعاها ، ويقيم أودها لترعاه ، ليعيشوا في بحبوحة من العيش ، وصفاء .

وخاصة في هذا الزمن الصعب .

ونصيحتي المهمة للطرفيين ، ما داموا قبل الزواج وقبل عقد النكاح ، أن يشترطوا لأنفسهم شروطاً ، لغوائل الدهر وعواديه ، ولعدم فهم الآخر ، وطبيعته التامة ، وخاصّةً في هذا الركن المتقلب ، فالشرع قد سمح بذلك ، حتى يعرف كلٌ منهما كلَّ ما هو مُقْدِم عليه .

وبما أن جانب الزوجة أكثر اعتماداً على جانب الزوج ، والمجتمعات قد انفتحت بعضها على البعض الآخر ، لذا يتطلب هذا الأمر الحكمة التامة من قبل الطرفين قبل الإرتباط .

فعليه بتقوى الله فيها ، وعليها كذلك ، كما ولها أن تأخذ الحذر ، خوفاً من تقلبات الزمن وغدره ، واختلاف المزاج ، وثقله .

فمشاكل كثيرة حدثت وتحدث بسبب هجر الزوج لزوجته ، حتى أن بعضهم قد هجرها وهو لم يتزوجها بعد .

أو الذين في الغرب ويريدون نساءاً في الشرق ، أو بالعكس تراهم يجدّون ويجتهدون ليل نهار ، ثم لا تنتهي المعاملة لأسباب كثيرة ، فيبقى الزوجان في مكانين بعيدين ، لفترة طويلة قد لا يتحملها الزوج ، أو الزوجة ، فيحدث الإرباك ، والإرتباك .

ومشاكل بسبب عدم القناعة بالزوج ، أو بالزوجة لعدم معرفتها وأهلها مُسبقاً .

وأخرى لعدم الإنسجام ، وربما هم بعدُ في الأيام الأولى من كتابة الكتاب بينهما .

وثالثة ، لعدم سيرة الزوج الحسنة ، والذي كان ظاهره الإلتزام ، حتى إذا تمَّ مراده ظهر نفاقه ، والزوجة تريده بشروط الإيمان .

أو بالعكس ، تظنُّ مِن أنه في الغرب ، فلا التزام ، وتأتي وإذا به من الملتزمين، وهي لم تقتنع أصلاً لا بالحجاب ، ولا بالثواب ولا العقاب .

وكم زوَّر الزوج نسبه ، أو شهادته ، أو وظيفته وعمله ، فالأمر ممكن في هذه الأيام ، بصورة ملفتة للنظر .

أو أن يظهر الزوج بثوب الحمل عند أيام الزواج الأولى ، وإذا به ذئب قاتل، بعد أن بلغ مراده ، وأدخل الضحية في قفصه .

وبعضٌ ، وبعض .....وهكذا .

وهذا كله ليس من نسج الخيال بل من تجاربٍ حدثت ، وتحدث كما قلنا ، كلَّ يوم ، بِنِسَبٍ واضحة ، وملفتة للنظر في أيامنا هذه ، ناهيك عن عدم التربية الإسلامية الصحيحة لكلا الطرفين .

فبناءاً على هذه القائمة الطويلة ، أحبِّذ للزوجات ، والأزواج الدخول في دورات تثقيفية قبل الزواج ، أو على الاقل قراءة الرسائل العملية المبسطة ، لمعرفة ما عليه وما عليها ، وبعض الحدود الشرعية ، والإرشادات العلمية ،

والعملية ، لمساعدة كلا الطرفين في شق طريق الحياة ، وتعبيده .

ومن طرف آخر أحبِّذ للزوجات أنّ يشترطن بعض الشروط ، ليتناسق ما عليه الأمر في هذه الأيام ، وفي هذه البلاد خاصة ، مع ما أوجب عليهنّ اللهُ ، وعلى الزوج خوفاً من الإخلال بذلك ، من كليهما ، قبل أن يَضيق عليهنّ السبيل.

وبأخصر عبارة ممكنة ، يفهمها ذوو الأبصار ، لأنّ الزواج عقد ، والطلاق إيقاع .

فانتبهوا ، انتبهوا ، ما دام الأمر واضحاً ، والسبيل عريضاً ، قبل أن تضيق الأمور ، وتتشابك الأهواء ، ويفقد ذو اللبّ لبَّه .

وساعد الله الجميع على هذه الأيام العصيبة ، والليالي المريبة .

ومن أهم ما يُضايق النساء هذه الأيام :

المثال الأول : ليس للزوجة أن تخرج من البيت إلا بإذن الزوج .

وهذا قد جُعِل لمجتمع إسلامي كريم ، مبني على التواد والتراحم .

لكن لا هو يفهم هذا ، ولا هي تفهمه .

وهذا ربما سيكون ممّا يستغله الزوج بأبشع استغلال ، ويعود لعوامل كثيرة، ربما لعدم ثقافة الزوج ، أولعقليته الضيقة ، التي ربما ستظهر فيما بعد ، وقد يثقل عليها ذلك أيَّ ثقل في بعض الأيام .

وأنا الآن لست بصدد ذكر الزوج الذي يفعل ذلك لمصلحة الأسرة والزوجة ، لأمر راجح هو يراه ليحافظ على بيته ، وهيَ تراه مُنكراً ، فهذه عليها

أن تحكّم عقلها ، وضميرها وترجع إلى الله لكي يساعدها في تحمل ذلك .

المثال الثاني : الولد من حق الزوج .

ففي ذلك حفاظ على المرأة ، والعبأ يقع على الزوج .

ولكن الموازين انقلبت هذه الأيام .

وفي الغرب الولد من حق الأم .

وهنا أيضاً يحدث الإضطراب للعواطف الجياشة والتعلق الأمومي ، فهذا يشد من جانب ، وتلك تشد من الجانب الآخر .

المثال الثالث : الإستحباب في خدمة الزوجة لبيتها ، والإعتناء بزوجها ، وأولادها .

وهنا انقلب إلى واجب .

المثال الرابع : الزوجة تفرِّط بهذا الحق ، كثيراً ، وتحاول أن تتهرب بأيِّ عذر من الأعذار ، بحيث يضجر الزوجمنها ، ومن البيت الذي يعيش فيه ، وتتحوِّل حياتهما جحيماً .

المثال الخامس : أموالها لها ، وهو يريد السيطرة عليها ، وهي ترفض ، فيحدث الشد من كلا الطرفين ، فيرتبك الأمر كثيراً .

ولنضرب مثلاً عملياً ، واقعياً ، يشرح ما سبق كله لكلِّ أحد :

قال الفقهاء : إذا كان الزوج يؤذي زوجته ، ويشاكسها بغير وجهٍ شرعيّ[١] :

١ــ قطّعت الكلام ، لكي تتبين بوضوح المراحل العملية التي يجب اتباعها .

١ : جاز لها رفعُ أمرِها الى الحاكم الشرعي

٢ : لِيمنعَهُ من الإِيذاء ، والظلم

٣ : ويُلزمَه بالمعاشرة معها بالمعروف، فانْ نفع

٤ : وإلاّ عزّره بما يراه

٥ : فإن لم ينفع ايضاً ، كان لها مطالبة الزوج ، حتى لو بواسطة الحاكم ، بالطلاق

٦ : فإن امتنع منه ، ولم يمكنْ اجبارُهُ عليه

٧ : طلّقها الحاكمُ الشرعي.

فكيف يمنعه من الإيذاء ، في هذه الأيام التي هوَ - أي الحاكم الشرعي- فيها لا حول له ، ولا قوّة ؟!

وكيف يلزمه بالمعاشرة معها بالمعروف ، قبل ذلك ؟!

بل **كيف** يعزّره ؟

وأين؟!

فان امتنع من الطلاق بعد التعزير ، ولم يمكن إجباره ...

وَمِن حق كلِّ أحد أن يسأل هنا : **هل** حيثيات هذا كله ، عملياً ، **ممكن** في هذه الأيام ؟!

وأخيراً ..... طلَّقها الحاكم .

ونقطة أخرى مهمّة تُضاف أيضاً :

مع حاجة كثير ممّا سبق للإثبات الشرعي ، والتأكد .

بالإضافة إلى أن الشيطنة موجودة ، وخاصة إذا كان الزوج يعرف بعض أحكام الله .

والعالَمُ واسعٌ ، وبعضُ المتصدّين ، مع احترامي وتقديري للجميع ، لا يفهمون هذه الأمور أصلاً ، أوتطبيقاً وعملاً .

فالأمرُ معقّدٌ أشدُّ مِمّا نتصوّر ، معقّدٌ تعقيداً شديداً ، قد لا يتحمله العاقل .

فتحدث الكوارث ، والقيل والقال ، وتعدد السؤال ، وكثرة الجدال ، وتدهور الأحوال ، وأخيراً ضياع الحقِّ ، والمال .

والله أعلم إلى أين سيكون المرجع والمآل .

لِذا أرى أنَّ أحسن الطرق وأسلمها ما ذكره الله تعالى في كتابه :

((وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا))[1]

والتي بيّنها الفقهاء بما يلي :

وهذا يكون بعد أن يرفعا أمرهما إلى الحاكم الشرعي ، فيبعث حكمين ، حكماً من أهله ، ومن أهلها حكماً ، لإصلاح الأمور ، ورفع الشقاق .

فيجدُّ هذان ويجتهدا حتى يزيلا كلَّ ذلك الشقاق ، فإنِ استطاعا فلله الحمد، وإلا ما يحكمان به ينفذ ، بشرط عدم مخالفة الشارع .

١ــ النساء / ٣٥ .

وقد قال تعالى ، وهو أصدق المخبرين :

((إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً))[١].

أمّا لو اجتمعا على التفريق ، فلا يتم إلا بشروطه ، كما فُصِّل في كتب الفقه .

وهنا أيضاً يُمكن أنْ تحدث المصائب ، لأن أغلب ما سبق يمكن أن يحدث هنا ، في هذه المرحلة ، فنقع بما فررنا منه .

ولا ننس من أنَّ (القابض على دينه كالقابض على الجمر) ، ولعلَّ هذا أحد مصاديقه .

وتخفيفاً لكل ما سبق ، وتدراكاً للأمور قبل حدوثها ، وقبل تضييق الطريق، وحصره ، والشارع قد جعل السعة ، ولعلَّ ذلك لكل ما ذُكِر وتخفيفاً عن كاهل المؤمنين ، جعل طرقاً أخر ، لعلها تصلح لزماننا وغيره .

لذا قلنا الإشتراط أولى ، وأحسن من هذه المصاعب ، والمصائب كلها ، خاصةً في هذه الأيام العصيبة ، حيث اختلط الحابل بالنابل .

أمثلة على الإشتراط :

تقول الزوجة :

زوجتك نفسي على المهر المعلوم ، بشرط ألا تغيب عني ، وتتركني لأكثر من ستة أشهر (مثلاً) ، وإذا فعلت فأنا وكيلةٌ عنك في طلاق نفسي .

فيقول الزوج مباشرة : قبلت....

١ــ نفس الآية السابقة .

أو تقول :

زوجتك نفسي على المهر المعلوم ، بشرط ألا تشرب الخمر (أو المخدرات)، (أو تلعب القمار) وإذا فعلت فأنا وكيلةٌ عنك في طلاق نفسي .

فيقول الزوج مباشرة : قبلت....

أو تقول :

زوجتك نفسي على المهر المعلوم ، بشرط ألا تضربني (أو تهينني) وإذا فعلت ذلك فأنا وكيلةٌ عنك في طلاق نفسي .

فيقول الزوج مباشرة : قبلت....

أو تقول :

زوجتك نفسي على المهر المعلوم ، بشرط أن تأخذني إليك خلال عشرة أشهر ، وإذا لم تفعل لأي سبب فأنا وكيلةٌ عنك في طلاق نفسي .

فيقول الزوج مباشرة : قبلت....

أو تقول :

زوجتك نفسي على المهر المعلوم ، بشرط ألّا تمنعني من الخروج ، في حالة لم تكن أنت في البيت وأنا أريد الخروج (مثلاً) ، (أو إذا كنت أريده لأجل التعلم، أو العمل ، أو...) ، وإذا منعتني فأنا وكيلةٌ عنك في طلاق نفسي .

فيقول الزوج مباشرة : قبلت....

أو تقول :

زوجتك نفسي على المهر المعلوم ، بشرط أن يكون سكننا في (هذه المدينة ، أو تلك) ، وإذا خالفت هذا الشرط فأنا وكيلةٌ عنك في طلاق نفسي .

فيقول الزوج مباشرة : قبلت....

وهكذا كل شئ تخاف منه تشترط عدمه ، وكل شئ تريده تشترطه .

فإن خالف الشرط الواقع في العقد فهيَ حينئذٍ ، أو أي أحد آخر يتفقان عليه ، يكون وكيلاً عنه في طلاقها .

بل لها أن تشترط أن تكون وكيلة عنه في طلاق نفسها منه مطلقاً .

ففي أي وقت شاءت طلقت ، كما هو حال الرجل .

وكل هذا لا يعني أن الطلاق سيقع ، في حالة مخالفة الشرط ، أو يجب عليها الطلاق ، ولكن معناه وفائدته أنَّ لها أن تخلِّصَ نفسها بالطلاق ، إن كانت لا تتحمل مخالفة شرطها ،أو كما ذكرنا مطلقاَ ، وإلّا فلهاألّا تطلِّق ، وتبقى زوجة له بقية حياتهما .

وبوجود مثل هذه الشروط ، سوف يفكِّر الزوج ، تفكيراً عميقاً ، قبل أن يقدم على مخالفة شرطٍ هو وافق عليه بدواً .

وهذا قد ينفع في الإستقرار ، وعدم الإستغلال .

وتنبيه مهمٌ

لا تقولنّ : بشرط أن تكون "العصمةُ" بِيَدي ، فَفقهاؤنا لايجيزون ذلك ، لأنه مخالف لِما أمر الله تعالى ،فيصبح الشرط لا أثر له .

عن اسحاق بن عمار عن جعفر عن ابيه عليهما السلام قال:

(إنَّ عليَّ بن أبي طالبٍ عليه السلام ، كان يقول: مَن شرط لامرأته شرطاً ، فليفي لها به ، فَإنَّ المسلمين عند شروطهم ، إلّا شرطاً حرّم حلالاً ، أو أحلَّ حراماً .)[١]

وعن عبد الله بن سنان ، بسند صحيح عن الامام الصادق عليه السلام، قال: سمعته يقول: (من اشترط شرطاً مخالفاً لِكتاب الله ، فلا يجوز له ، ولا يجوز على الذي اشترط عليه ، والمسلمون عند شروطهم ، مِمَّا وافقَ كتابَ الله عزَّ وجلَّ .)[٢].

أقول هذا ، وأعلم من أنَّ أغلب شبابنا يرفضون ذلك ، ولا يحبون مثل هذه الشروط ، بل بعضهم قد يعتبر ذلك مخلًّا برجولته.....

ولا خلل في الرجولة إذ هوَ بنفسه واختياره سيمنحها هذا الحق ، والمسلمون عند شروطهم ، كما اتضح لك ذلك بروايات أهل البيت عليهم السلام ، وهو ما اتفق عليه العلماء والفقهاء ، وأنت نفسك تعيش بمجتمعٍ ، وتحت قانون ، بعيدٍ عن عاداتك وتقاليدك ، التي تعودت عليها ، حاولْ أن تنسِّق نفسك معه بما لا يخالفُ شرع الله ، لكي لا تقع أو توقع الآخرين بمشاكل ، تتنافى وتلك القوانين ، التي يستغلها بعضهم بحسب مصلحته ، فيضغط على الطرف الآخر .فإنّه عصرك الذي تعيش فيه ، وبلدك الذي اخترته ،وهذه هي الحياة ، فدرْءاً لمفاسد كثيرةٍ ، كثيرٌ من الناس غافلٌ عنها ، وهو الأمرُ الواقع الذي يفرض نفسه ، ، وإن رفضه البعض ، علينا أن ننتبه ، وننبّه الآخرين ، والله من وراء القصد .

فهناك مَن يُطلّق زوجته في المحاكم الرسمية ، الحكومية لذلك البلد ،

١ــ وسائل الشيعة / كتاب التجارة، الباب ٦ من أبواب الخيار.

٢ــ وسائل الشيعة / كتاب التجارة، الباب ٦ من أبواب الخيار.

ويبقيها شرعاً ، أي لا يطلقها طلاقاً شرعياً ، لا لشئ إلّا لِيعذبها[١] .

وبعضهم غير ملتزمين ، فيطلقها رسمياً ، لِتَبْدأ المطاردة معه ، كي يطلقها شرعياً ، ولكنه يفرّ ، أو يتقاعس ، أو لأي أمر آخر ، لا يصغي لِمن يطالبه بالطلاق الشرعي ، قائلاً من أني قد طلقتها ، فلتفعل بنفسها ما تشاء .

وبعض يقول لها فسخت العقد ، بوجود شهود ، أو عدمه ، مع الجهل المطبق ، ويظن من أن الطلاق قد وقع .

وهكذا ....

ومع الأسف أغلب الناس لا يعرفون الأحكام ، فيقع الكثير منهم ، في المحرمات الشرعية ، من حيث يدرون ولا يدرون .

وأحسن من ذلك كلّه : المعاشرة بالمعروف

كما أمرنا الله تعالى بذلك :

في "مقابيس اللغة" ، في مادة "ع ش ر" : (العين والشين والراء أصلانِ صحيحان: أحدهما في عددٍ معلوم ثم يحمل عليه غيرُه، والآخَر يدلُّ على مداخَلةٍ ومُخالَطة.... فأمَّا الأصل الآخَر الدَّالُّ على المخالطة والمداخَلة فالعِشْرة ، والمعاشَرة.

وعشيرُك : الذي يعاشرُك. قال (الخليل) : ولم أسمع للعشير جمعاً، لا يكادون يقولون هم عُشَراؤك، وإذا جمعوا قالوا: هم مُعاشِرُوك. قال: وإنّما سمِّيت عشيرة الرّجُل لمعاشرةِ بعضهم بعضاً، حتَّى الزّوجُ عشير امرأتِه .)).

١ــ وهذا الذي أذكره ليس من باب الإفتراض ، بل مرّ عليّ مثله ، وابتليت فيه ، ورأيته .

ولذا قال في لسان العرب : وعشيرُ المرأة : زوجُها لأَنه يُعاشِرها وتُعاشِرُه ، كالصديق والمُصَادِق .

أصل العشرة في اللغة المخالطة والمداخَلة والمعاشرة ، التي هي بتعبير آخر الإجتماع .

لذا قد قال تعالى : ((عاشروهنَّ بالمعروف))

أي خالطوهنَّ ، واجتمعوا معهنَّ بالمعروف ، أي عيشوا معهنَّ حياتكم بالمعروف .

وهذا الأمر يوجه للمسلمة كذلك ، وتوجه الكلام للزوج دونها لعله لأن أمر البيت بيده ، ولأن المرأة بطبيعتها الرقة والود والهدوء ، فلا تحتاج لتوصية ، وأقرب خطاب وصايا الله للولد أن يعتني بوالديه دون الوالدين وذلك لأن من طبيعتيهما المحبة للولد ، دون العكس .

وإلا فعلى الزوجة أن تعاشر زوجها بالمعروف أيضاً .

ولأنّ الله قال : ((ولهنَّ مثلُ الذي عليهنَّ بالمعروف))[١]

ولكنما هو المعروف ؟

نقول : المعروف ضد المنكر .

والمعروف : قال صاحب "العباب الزاخر" ، في مادة (عفو) : والمعروف ضد المنكر .

قال الله تعالى: ((وأمرْ بالمعروف)) ، وقال ﷺ: (صنائع المعروف تقي

١ــ البقرة / ٢٢٨ .

مصارع السوء.) .

وقوله ﷺ: "أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة. "[١].

وقال صاحب "مقاييس اللغة" :العين والفاء والحرف المعتلّ (الواو) ، أصلان ، يدلُّ أحدهما على تركِ الشيء، والآخر على طَلَبِه ؛ ثم يرجع إليه فروعٌ كثيرة ، لا تتفاوَتُ في المعنى.عفا عنه يعفُو عَفْواً.

والأصل الآخر الذي معناه الطَّلَب ، قول الخليل: إنّ العُفاةَ طُلاّب المعروف ، وهم المعتَفُون أيضاً. يُقال: اعتفيتُ فلاناً، إذا طلبتَ معروفه وفَضْله.

فإنْ كان المعروف هو العَفو فالأصلان يرجعان إلى معنىً، وهو الترك، وذلك أنّ العَفو هو الذي يُسمح به ، ولا يُحْتَجَن ، ولا يُمسَك عليه.

فإذا كان كذلك فإن المعروف هو الذي يسمح به الناس ، ويُترك صاحبه ليفعله ، أي فعله غير مستهجن ، ولا مستنكر .[٢]

ولذا يقول صاحب اللسان :وأما على ما قاله الزجاج في قوله تعالى ((وصاحِبْهما في الدنيا معروفاً))(أَي مصاحباً معروفاً؛ قال الزجاج : المعروف هنا ما يُستحسن من الأَفعال.)[٣].

فإذاً المعروف ليس ما لايُسْتَهْجَنُ فقط ، بل ما يُستحسن .

ولذا قال صاحب اللسان بعد ذلك :

١ــ "العباب الزاخر" / مادة (عفو) .

٢ ــ "مقاييس اللغة" / مادةالعين والفاء والواو .

٣ــ لسان العرب / مادة ع ر ف .

(وقد تكرَّر ذكر المعروف في الحديث، وهو اسم جامع لكل ما عُرف ما طاعة اللهّ ، والتقرّب إليه ، والإحسان إلى الناس، وكل ما ندَب إليه الشرعُ ، ونهى عنه من المُحَسَّنات والمُقَبَّحات ، وهو من الصفات الغالبة ، أَي أَمْر مَعْروف بين الناس إذا رأَوْه لا يُنكرونه . المعروف : النَّصَفةُ ، وحُسْن الصُّحْبةِ مع الأَهل ، وغيرهم من الناس، والمُنكَر: ضدّ ذلك جميعه.) .

فهذا هو المعروف .

إذاً وعاشروهن بالمعروف ، هو هذا أي النصفة ، أي ينصفها من نفسه ، وأن يصاحبها بالإحسان .

فما أمر به الشرع يجب أن ينفذ ، وما قام عليه العرف العام إذا لم يكن مخالفاً للشرع ، عليه أن يوفره لها ، وبالعكس ، فكلاهما مطلوب .

الطرفان مهمان في المعادلة ، ونجاح الحياة الأسرية ، وإلا لو اختل أحدهما فسيربك الآخر وربما سينهار البناء ، إلا في حالات نادرة ، يستطيع هذا الآخر، الذي قد يكون الزوج أو الزوجة ، أن يستوعب الفتنة كلها ، ويُحافظ على بيته وأسرته .

قال رسول اللهَّ صلى الله عليه وآله وسلم:

(ألا خيرُكمْ خيركم لِنسائه ، وأنا خيركم لِنسائي .)[١].

وعن الإمام موسى الكاظم عليه السلام:

(جهادُ المرأةِ ، حُسْنُ التَّبَعُّل)[١].

١ــ وسائل الشيعة / ج٧ / ص١٢٢.

١ــ الكافي / ج٥ / ص٥٠٧.

ويجمعُها كلَّها حُسْنُ الخُلُق ، لِكلا الطرفين

فقد جاء في الصحيح ، عن محمد بن مسلم ، عن أبي جعفر (الباقر)عليه السلام، قال :

(إنَّ أكملَ المؤمنينَ إيماناً ، أحسنُهُمْ خُلقاً .)[١] .

وقد جاء في الصحيح كذلك، عن عبدالله بن سنان ، عن الإمام الصادقعليه السلام ، قال :

(البِرُّ ، وحُسْنُ الخُلُقِ يُعَمِّرانِ الدّيارَ، ويَزيدانِ في الأعمار .)[٢] .

ومن كلام للإمام جعفر الصادق عليه السلام، سمّاهُ بعضِ الشيعة "نثرُ الدُّرَر" ، كما رُويَ ذلك في "بحار الأنوار" :

(مَن لم تكن فيهِ ثلاثُ خِصالٍ ، لم ينفعْهُ الإيمانُ : حِلْمٌ ، يَرُدُّ بهِ جَهْلَ الجاهِل ، وَوَرَعٌ ، يَحْجِزُهُ عن طلب المحارم ، وخُلُقٌ ، يُداري بِهِ النَّاس .)[٣] .

وفي صحيح الفُضَيل ، قال (الباقر ، أو الصادق عليهما السلام) :

(صنائِعُ المعروف ، وحُسْنُ البِشْرِ ، يُكسِبانِ المحبَّة ، ويُدخِلان الجنة ، والبُخْلُ ، وعُبُوسُ الوجهِ ، يُبْعِدانِ مِنَ الله ، وَيُدْخِلانِ النَّارَ .)[٤] .

من هذا العام ، ننتقل للخاص :عن أمير المؤمنين ، عليه السلام، قال :

١ــ الكافي / ج٢ / ص٩٩ / كتاب الإيمان والكفر باب حسن الخلق / ح١ .

٢ــ الكافي / ج٢ / ص١٠٠ / كتاب الإيمان والكفر باب حسن الخلق / ح٨ .

٣ــ بحار الأنوار ./ج ٧٥ / ١٠٧ – ومن كلام الإمام جعفر الصادق عليه السلام سماه بعض الشيعة نثر الدرر– ، اخترنا عدة روايات هذه إحداها . / ح ٨٢ / ص ٢٣٨ .

٤ــ الكافي / ج٢ / ص١٠٣ / ح٥ .

قال رسول الله ﷺ:

(أحسنُ النَّاس إيماناً ، أحسنهمْ خُلقاً ، وألطَفَهُمْ بأهلِه ، وأنا ألطفكمْ بأهلي.)[١] .

ومنها :**البشاشة** : لا أن يكون أحد الزوجينِ عبوساً قمطريراً .

ومن نثر الدرر ، قال الإمام الصادق عليه السلام:

(ثلاثٌ مَن كنَّ فيهِ استكملَ الايمانَ ، مَن إذا غَضِبَ لم يُخْرِجْه غضبُهُ مِنَ الحقِّ ، وإذا رَضِيَ لم يُخْرِجْهُ رِضاهُ إلى الباطل ، ومَنْ إذا قدرَ عَفا .)[٢] .

ومن خلال الآية المباركة :

((**وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ** مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[٣]

نشير لقول سيد البلغاء وأميرهم ، عليٍّ بن أبي طالب ، عليه السلام:

(والبَشَاشَةُ حُبَالَةُ المَوَدَّةُ .)[٤].

الكلمة الطيبة :

فعن الرسول ﷺ، أنه قال :

(قولُ الرجلِ للمرأة "إنّي أحبكِ" ، لا يذهبُ مِن قلبها أبداً .)[١] .

١ــ البحار / ج٦٨ / ص٣٨٧ .

٢ــ بحار الأنوار ./ج ٧٥ / ١٠٧ "ومن كلامه عليه السلام سماه بعض الشيعة نثر الدرر" /ح ٨١ / ص ٢٣٨ .

٣ــ سورة الروم / ٢١ .

٤ــ نهج البلاغة / باب الحكم / رقم : ٥ .

١ــ الوسائل / كتاب النكاح / باب ٣ من مقدمات النكاح / ح٩ .

الكرم من دون إفراط :

ومن نثر الدرر تلك ، قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

(إنَّ المرء يحتاج في منزله ، وعياله ، إلى ثلاثِ خِلالٍ ، يَتكَلَّفُها وَإن لم يكنْ في طبعِهِ ذلك : مُعاشرةٌ جميلة ، وسَعَةٌ بِتَقْدير ، وغِيرةٌ بِتَحَصُّن .)[1] .

المنظر الخارجي ، والهيئة الحسنة :

ومن درر البحار ، قال الإمام جعفر بنُ محمدعليه السلام: (لا غنى بالزوج عن ثلاثة أشياء ، فيما بينه وبين زوجته ، وهيَ :

الموافقةُ ، لِيَجْتَلِبَ بها موافقتَها ، ومحبتَها ، وهواها ، وَ حُسْنَ خُلْقَةٍ معها .

واستعمالُهُ استمالةَ قلبِها بالهيئة الحَسَنة في عينها .

وتوسعتُهُ عليها .

ولا غنى بالزوجة فيما بينها وبين زوجها ، الموافقِ لها ، عن ثلاث خصالٍ ، وهنَّ :

صيانةُ نفسِها عن كلِّ دَنَس ، حتّى يَطْمَئِنَّ قلبُه إلى الثِّقَةِ بِها ، في حالِ المحبوبِ والمكروه ، وحياطتُهُ ، لِيكونَ ذلك عاطفاً عليها ، عند زَلَّةٍ تكونُ منها .

وإظهارُ العِشْقِ له بالخِلابَة[2] ، والهيئة الحَسَنة لها في عينه .)[1] .

١ــ بحار الأنوار /ج ٧٥ / ١٠٧ – ومن كلامه عليه السلام سماه بعض الشيعة نثر الدرر – . / ح٦٣/ ص ٢٣٦ .

٢ــ خَلَب المرأةَ عَقْلَها ، يَخْلِبُها خَلْباً: سَلَبَها إياهُ ، وخَلَبَتْ هيَ قَلْبَه ، تَخْلِبُه خَلْباً ، واخْتَلَبَتْه : أَخَذَتْه ، وذَهَبَت به .

اللَّيث : الخِلابةُ : أَن تَخْلُبَ المرأَةُ قَلْبَ الرجل ، بأَلطفِ القولِ وأَخْلَبِهِ ، وامرأَةٌ خَلاَّبة للفؤادِ ، وخَلُوبٌ، أنظر في ذلك كله "لسان العرب" ، مادة "خلب" ؛ وليست هنا الخلابة بمعنى المُخادعة ، وإن كانت هي الأساس .

وعن الحسن بن جهم ، أنه قال: رأيت أبا الحسن عليه السلام اختضب ، فقلت : جعلت فداك أختضبت؟ فقال عليه السلام:

(نعم ، إن التهيئة مما يزيد في عِفَّة النِّساء، ولقد ترك النساءُ العفّة بِترْك أزواجِهِنّ التَّهيئة ، ثمَّ قال: أيسرّك أن تراها على ما تراك عليه ، إذا كنتَ على غير تهيئة؟ قلتُ: لا ، قال: فهو ذاك .) .[٢]

وكما بدأنا بالمرأة ، نختم بها ، فنقول :

المرأة سرُّ نجاح الأسرة ، وعدم خرابها

عـن أمير المؤمنين عليه السلام: (خيرُ نسـائِكمُ الخمس ، قيل يا أمير المؤمنين ، وما الخمْس ؟ قال: الهيِّنة ، اللَّيِّنة ، المؤاتية ، الَّتي إذا غَضِبَ زوجُها ، لم تكتحلْ بِغَمْضٍ ، حتّى يرضى ، وإذا غابَ عنْها زوجُها ، حَفِظَتْهُ في غَيْبَتِه ، فتلكَ عاملٌ مِن عُمَّال الله ، وعاملُ اللهِ لا يخيب .)[٣].

وفي الصحيح ، عـن جميل بن دراج ، عن أبي عبدالله (الصَّادق) ، عليه السلام:

((خيرُ نسائِكم التي إنْ غَضِبَتْ ، أو أُغْضِبَتْ ، قالت لِزوجِها : يَدي في يدك ، لا أكْتَحِلُ بِغَمْضٍ، حتّى تَرْضى عَنّي .))[١] .

١ــ بحار الأنوار ./ج ٧٥ / ١٠٧ – ومن كلامه عليه السلام سماه بعض الشيعة نثر الدرر – /ح ٧٠ / ص ٢٣٧ . تحف العقول / ٣٥١ .

٢ــ الكافي / ج٥ / ص٥٦٧.

٣ــ الكافي / ج٥ / ص٣٢٥ .

١ــ الوسائل / كتاب النكاح / باب٩ من مقدمات النكاح . / ح٣ .

الملحق

تذكير اللغة وتأنيثها ، في اللغات التي تفرّق بينهما كاللّغات السّاميّة، والمثال العربية

كما وجدنا أنه لا فرق في التكوين ما بين الذكر والأنثى ، فكلاهما من نفس واحدة ، وكلا النسلين من نسل واحد ، مبدؤه بين الصلب والترائب.

ووضع الإنسان اللغة أو وضعت اللغة ، وكان مما لابدّ منه أن يكون ثمة فرق بين المذكر والمؤنث ، على أقل تقدير عند تطوّر اللغة ، إذ انّ هذا من علامات لطف اللغة ، واستيعابها لمعاني الحياة ، والزوجية كانت أساس كل شئ، فلا مفر منها ولا مخلص ، فلابدّ من الإشارة لكلا القطبين الأساسيين في هذه الحياة ، فتمَّ وضع الألفاظ المشيرة لكليهما .

وربما كان الأصل عدم التمايز ، ولابد لأحدهما أن يميز عن الآخر ، فجاءت علامة التأنيث وظهرت ، ولكن لمَ لم تكن للتذكير ؟

لا تعجل فالحديث لم يتم ، وظهرت مقابل ذلك علامة أخرى للتذكير (كعلامة الياء والنون للجمع المذكر السالم ، مثلاً) ، وهكذا الحياة لابدّ لها من التنوع .

كما أنه وتبعاً للخليقة كانت هناك صفات أنثوية لا مذكّر لها ، وكانت بالمقابل هناك صفات ذكرية لا مؤنث لها ، وبين هذه وتلك صار هناك مذكر في

اللغة ليس له مؤنث ، ومقابل ذلك كان هناك مؤنث لا لفظ مذكر يقابله ، ومقابلهما ما هو صفة لكليهما .

فتلك العلامات وقبلها الصفات ، لا البطل الذكري جاء بها ، ولا الملكة الأنثوية سيطرت على الأمور فصارت "بلقيسها" ، أو "زنوبتها" او "كليوباترتها" فجاءت بها ، بل طبيعة الأشياء وخلقتها .

هكذا نتصور أَنَّهُ تَمَّ وَضعُ اللغات .

فلما كان كذلك ، صارت كما رأينا وسمعنا .

ولكن للحياة أسرار ، ولا حَدَّ لِتصورات الإنسان ، وذهنُهُ وقّاد ، وفكرهُ متنوع ، وجدله لا حدّ له ، فظهرتدعاوٍ ما أنزل الله بها من سلطان ، ولكنّها قيلت، وبعضها وإن كان فيه ما فيه ، إلا أنه يجدر الوقوف عنده ، وبالتمعن لعله يزول من ذهن قائليه ومتبنيه ، وربما رسخ في الذهن لعقدة النقص ، أو ظنّ التهميش ، أو سوء استغلال الطرف الآخر لهذا الواقع ، فَكَرَدَّةِ فعلٍ طبيعيةٍ يكون هذا .

وللبيان نقول :

كقاعدة لغوية لو اجتمع جمع من الذكور والإناث ، فخطابهم يكون بالتذكير ، قلَّ عدد أحد الأطراف ، أم كثر .

ولا يقتصر هذا الذي يسمى بالتغليب على هذا النوع ، بل له أنواعٌ أخر ، لا علاقة لها بالتأنيث وبالتذكير ، كتغليب المخاطب على الغائب وقد أحصى الزركشي منها عشرة أنواع ، وذكر هذا من النوع (الأول : تغليب المذكر على

المؤنث ، كقوله تعالى : ((فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ))[١]، وقوله عن مريم عليها السلام :

((وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ))[٢].

والأصل في هذا أن يقال: (من الغابرات) ، و(من القانتات) ، لكنه عدل عن جمع المؤنث إلى جمع المذكر السالم ، فعُدّت الأنثى في المذكر بحكم التغليب .)[٣] . إنتهى .

وهذا الأسلوب موجود ليس في لغة العرب فقط ، بل يتعدى ذلك إلى لغات عدّة ، فيها التفريق بين المذكر والمؤنث ، ولكن السؤال يبقى لِمَ الذّكْرُ الذكوري تقدّم ؟

أي لِمَ إذا كان هناك جمع من الذكور ، معهم جمْع من الإناث ، فالجمع الذكوري يُقدّم ، ويُرجَّح ؟

حتى أن القاعدة عند الأصوليين إن الشارع المقدس إذا خاطب جمع المسلمين ، والمؤمنين وأمثال هذين الجمعين ، أو أنبأ عنهم في الوعد والوعيد ، أوالثواب والعقاب ، أوالترهيب والترغيب ، فإنه يشمل الرجال والنساء على حدٍّ سواء ، ما لم يكن ثمة تخصيص .

١_سورة التحريم / ١٨ .

٢ _السورة السابقة / ١٩ .

٣_ أنظر : البرهان في علوم القرآن– الزركشي : ٣/٣٠٢. ٣١٣ . والإتقان في علوم القرآن– السيوطي: ٢/١٠٨ .

((وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا...)) [١] ، ((وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى ...)) "[٢]، أو قوله تعالى ((هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ))[٣] .

يقول الثعالبي في كتابه "فقه اللغة" :

((فصل في الخطاب الشامل للذكران والإناث وما يفرّق بينهما :

قال الله تعالى ((يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ...))[٤] ، وقال تعالى ((وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ))[٥]

فعمّ بهذا الخطاب الرجال والنساء ، وغلّب الرجال ، وتغليبُهم مِن سُنَن العرب .)) [٦].

ويقول سيبويه : ((وتقول : هذا حادي عشر إذ اكنّ عشرنسوة معهنَّ رجل ؛لأن المذكر يغلب المؤنث..)) [٧].

يقول أبو البقاء الكفوي : (ومدار التغليب على جعل بعض المفهومات تابعا لبعض ، داخلاً تحت حكمه في التعبير عنهما بعبارة مخصوصة للمغلب ،

١_ الأعراف ٣١ .

٢_الإسراء ٣٢ .

٣_ البقرة / ٢ .

٤ _ هذا المقطع يتصدر كثيراً من آيات الله .

٥_ البقرة: ٤٣ .

٦ _ أبو منصور الثعالبي. عبد الله بن محمد بن أسماعيل المعروف بأبي المنصور الثعالبي، لقب بالثعالبي لأنه كان فراءاً يخيط جلود الثعالب ويعملها ، (٣٥٠. هـ ٤٣٠. هـ) / الباب الثلاثون / الفصل ٣٤ / ص٧٧ .

٧_ سيبويه /الكتاب / ٣/ ٥٦١ .

بحسب الوضع الشخصي ، أو النوعي ، ولا عبرة في الوحدة والتعدد لا في جانب الغالب ، ولا في جانب المغلوب .)[١] .

وقد شدَّ بعضُهم في حملته ، فتجاوز حدود اللغة ، ليقفز إلى الموروث الديني، يقولعيسيبرهومة :

(ويستشف من هذا التقسيم خفايا ، تتجاوز حدود اللغة ، لِتمتد في سندها إلى بدء التكوين ، وباكورة الخلق ، ف"الأصالة، والفرعية "، التي اتكأت عليها الأجيال ، للتعاطي مع الجنسين ، ليست منفصلة عن قصة خلق آدم ، واشتقاق حواء من ضلعه ، فهذه القصة ، وما أُسبغ عليها من تحويرات أسطورية ، وتوراتية ، تعتدُّ المرجع المؤسس لأدوار الجنسين في الحياة ، منذ طفولة البشرية حتى عصر الانفجار المعرفي .)[٢] .[٣]

وقد ردَّ بعضهم مقالته ، من أن العرب كانوا وثنيين .

ولكنّ بعضهم مال إلى أن العرب تأثروا بالأحكام الشرعية ، فأرجعوها إلى الموروث الديني، ولكن من نظرة ، وانطلاقة أخرى ، فالنحويون هم الذين أضَّلوا متأثرين بها ، والعربية بريئة من هذا ، فجعلوا المذكر الأصل ، وجعلوا المؤنث فرعاً .

ولكن كما مر عليك إذ تبين أنَّ أغلب اللغات التي تفرق بين النوعين ،

١ــ أبو البقاء الكفوي / الكليات / ص٢٨١ .

٢ــ د. عيسى برهومه / اللغة والجنس / ٧٢ . ٧٣ .

٣ــ وقريب منه إذ أرجعها إلى أول الخلقة إبراهيم إبراهيم بركات / في كتابه التأنيث في اللغة العربية / ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع/ المنصورة، ١٩٨٨م ص٣٥.

تغلب التذكير على التأنيث .[١]

وجاءت رشيدة عبد الحميد اللّقاني وكأنّها تريد أن تبين البراءة العربية ، بل براءة جميع اللغات ، فقالت من أنّ المؤنث أصلٌ ، كما كان المذكر أصلاً ، بدليل أن " لوكان المذكر أصلاً ،لكان كلّ مذكر في اللغة العربية مذكراً في باقي اللغات"[٢].

وأنت ترى ما في ما سردناه كله ، فاللغة سابقة على الأسلام والتوراة ، وهذا الأخير لا اطّراد فيه .

ومثل هذاالجدال والإحتجاج ، والنقاش ، واللجاج لاينتهي .

وقد أجابو ا بجوابات عدة :

نقطة ارتكازها أنَّ المذكر هو الأصل ، والمؤنث الفرع

أولاً) : لعلَّ فلسفة ذلك ، لا إلى التمييز الجنسي ، كما قال بعضهم ، بل لأنه لابدّ من ذِكْر خطابٍ جامع ، وهما قسمان ، وغيرُهما متعذِّر ، لأنه لا يوجد ، ولا يُمكن من حيث اللغة الإتيان بما هو جامعٌ مِن غيرهما ، فنضطر أن نستعمل هنا الأصل ، فلو جُعل الأصلُ مَن يشير إلى المؤنث ، فالسؤال نفسه يتقدم ، أي يبقى لِمَ كان هذا الأصل ؟ ولِمَ قدِّم هذا ، وأخّر ذاك ؟

ثانياً) : قالوا بنفي أن يكون للغة دخل من حيث التركيب بالتقديم والتأخير ، بل الشرف للرجل نفسه ، من حيث أنه رجل ، ولا دخل للغة في

١ــ انظر:اللغة واختلاف الجنسين(ط١، عالم الكتب/ القاهرة، ١٩٩٦م) / ص٥٩. وانظر: عيسى برهومة / اللغة والجنس:حفريات لغوية في الذكورة والأنوثة / ط١،دار الشروق ، للنشر والتوزيع/عمان، ٢٠٠٢م / ص٩٤.

٢ــانظر : التأنيثفيالعربية / دارالمعرفةالجامعية / الاسكندرية، ١٩٩٠م / ٣٩ ــ ٤٣ .

ذلك ، (لأنّ الفضائل التي بها فُضِّل الرجل على المرأة ، لم تكن فضائلَ لأنها قارنت صورة التذكير وخِلْقته ، ولا أوجبت ما أوجبت من التعظيم لاقترانها بهذه الخلقة دون تلك ، بل إنما أوجبته لأنفُسِها ومن حيث هي ، كما أنّ الشيء لم يكن شريفاً أو غير شريف من حيث أُنِّث اسمُه أو ذُكِّر ، بل يثبُت الشرفُ وغيرُ الشرف للمسمَّيات من حيث أنفُسُها وأوصافُها ، لا من حيث أسماؤها ، لاستحالة أن يتعدَّى من لفظٍ هو صوتٌ مسموع نقصٌ أو فضلٌ إلى ما جُعل علامةً له ، فاعرفه .)[١] . فتأمّل .

ثالثاً) : قالوا بالإثبات[٢] ، وذلك :

١) : مجرد التغليب :

فلو اجتمع المذكر والمؤنث فالمذكر هو المتقدم ، لا لشئ إلا أنه مذكر ، لأن كلام العرب وغيرهم ممن فرّق بُنيَ على ذلك ، فلو اجتمعا ففعل التذكير يغلب : حكى القرطبي في تفسيره عند قول الله تعالى في سورة القيامة : { وجُمِعَ الشَّمْسُ والْقَمَرُ }[٣] :

(قال الفرَّاء: ولم يقل جُمِعت ؛ لأنَّ المعنى جُمع بينهما ، وقال أبو عبيدة : هو على تغليب المذكَّر .) .

فقول أبي عبيدة شاهد هذا ، ولم يذكر العلة فكأنّ ظاهره هو كذلك .

٢) : لأنه الأصل ، ولكن لماذا ؟ لأنه الأصل :

١ــ عبد القاهر الجرجاني/ أسرار البلاغة / ١٢٧ .

٢ــ بالإثبات ، أي أن اللغة لها دخل من حيث التركيب بالتقديم والتأخير . ولذا جعلناه قسماً ثالثاً .

٣ــالآية رقم ٩ .

قد ذكر "أحمد مختار عمر" في فصل "اللغة بين الحياد والتحيز للذكورة" أن معظم اللغات التي تفرق بين المذكر والمؤنث بلاحقة إضافية ، تتخذ من صيغة المذكر أصلاً ، ومن صيغة المؤنث فرعًا ، ويندر العكس .[١]

٣) : وكان الأصلَ لأنَّ التذكير بلا علامة ، والتأنيث بعلامة :

جاء عن المبرد : ((كلما لا يُعرف أم ذكرٌ هوأم مؤنث ، فحقُّه أن يكون مذكَّراً ؛ لأن التأنيث لغير الحيوانات إنّما هوتأنيثٌ بعلامة ، فإذا لم تكن العلامة فالتذكير الأصل .)) [٢].

٤) : للخفة ، أو بالإضافة للقوّة :

قال سيبويه : ((واعلم أن المذكرأخفُّ عليهم من المؤنث ..))[٣] .

وقال الثعلبي في تفسيره للآية (٨٣) من سورة البقرة (وإنّما قال "بِالْوالِدَيْنِ" ، وأحدهما والدة ، لأنّ المذكّر والمؤنّث إذا اقترنا غلب المذكّر ، لِخِفّته وقوّته .)[٤] .

١ــانظر:اللغة واختلاف الجنسين / ط١ / عالم الكتب / القاهرة / ١٩٩٦م / ص٥٩ ؛ وانظر : عيسى برهومة / اللغة والجنس ، حفريات لغوية في الذكورة والأنوثة / ط١ / دار الشروق للنشر والتوزيع/عمان / ٢٠٠٢م / ص٩٤.

٢ــأبوالعباس محمد بن يزيد المبرد / المذكر والمؤنث / تحقيق: رمضان عبدالتواب ، وصلاح الدين الهادي/ وزارة الثقافة/ القاهرة / ١٩٧٠م / ص١٠٨.

٣ــ سيبويه / الكتاب / ١ / ٢٢ .

٤ــ الثعلبي أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري ، ت ٤٢٧هـ / الكشف والبيان في تفسير القرآن / في تفسيره للآية المباركة ((وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ)).

٥) : أوالقوة وحدها : كما نقل الباحث كاظم عودة في رسالة الماجستير له قول صاحب كتاب التغليب في القران الكريم : (تحصيل الغلبة للشئ باعطائه حكم غيره... والغالب في العلة المرجحة للتغليب القوة ، فيقدّم لأنّه الأقوى)[١].

وقد ردَّه الباحث بقوله : (مفهوم القوّة مفهوم نسبي ، وذلك لتوافر علل أخرى ، قد تجعل الضَّعيف قوياً .)[٢].

وكأنه رجوع لِما أنكره !

لأنه يكون بهذا هو الأقوى ، فيُرجَّح ، فالترجيح يبقى للأقوى . أليس كذلك ؟!

في هذين الأخيرين كما رأيت ذكرت الخفة والقوّة ، دون السبب ، والسر في خفته وقوته يأتي من التالي ، ولذا أفردناهم .

٥) : المذكر هو الأول : فبذا يكون أشدَّ تمكناً : لأن الأشياء كلها، أصلها التذكير ، ثم تختص بعد :قال سيبويه ، معللاً قوله الأول ، تتمةً له :

(واعلم أن المذكر أخف عليهم من المؤنث ؛ لأنَّ المذكر أول ، وهو أشدُّ تمكُّناً ، وإنّما يخرج التأنيث من التذكير . ألا تريأنَّ (الشيء) يقع على كلما أخبر عنه ، من قب لأن يعلم أذكر هو ، أو أنثى ، و (الشئ) ذكر ، فالتنوين علامة

---

١ ــوزارة التعليم العالي والبحث العلمي / جامعة الكوفة / كلية الآداب / قسم اللغة العربية / ظاهرة التغليب في العربية / رسالة ماجستير / كاظم عودة خشان البدري ، بإشراف الأستاذ المساعد الدكتور محمد عبد الزهرة غافل الشريفي / ٢٠٠٣ .

٢ــ المصدر نفسه / ص٣٢-٣٣ .

للأمكن عندهم ، والأخف عليهم ، وتركه علامة لِما يستثقلون .)[١] .

وجاء في موضع آخر بقول ابن أبي إسحاق ، وأبي عمرو مؤيداً له : " وإنّما كان المؤنَّث بهذه المنزلة ، ولم يكن كالمذكر ؛ لأن الأشياء كلها أصلها التذكير، ثم تختص بعد ، فكلُّ مؤنثٍ شيءٌ ، والشيء يُذكَّر ، فالتذكير أوَل ،وهوأشدُّ تمكّناً،كما أن النكرة هي أشد تمكّنا من المعرفة ؛ لأن الأشياء إنما تكون نكرة ، ثم تعرّف ، فالتذكير قبل ،وهو أشد تمكناً عندهم ، فالأول هو أشد تمكنا عندهم..." [٢].

٧) : للسهولة والتيسير في النطق ، أو انسجاماً مع ما شاع واشتهر على ألسنة أهل اللغة :

قد ذكر الباحث الموفق المار الذكر "كاظم عودة" بعد أسطر تعريف التغليب ، ومما جاء في تعريفه ، بأنه (تغليب شئ أو أشياء على شئ .....إيثاراً للسهولة والتيسير في النطق ، أو انسجاماً مع ما شاع واشتهر على ألسنة أهل اللغة .)[٣] .

فارجع الأمر للسهولة والتيسير ، والإنسجام مع الشهرة ، وهذا ربما ينسجم مع بعض ما ذكر من موارد التغليب التي تفنن في احصائها ، وترتيبها ، وجاء بعمل كريم ، ولكن حديثنا لا زال في التذكير والتأنيث .

فهل هو نفس ما ذكره سيبويه ، في التعليل الخامس (واعلم أن المذكر أخفّ **عليهم** من المؤنث) ؟! وخاصة أنه قال (عليهم) ، أي أيثاراً للسهولة واليسر في

١ــ المصدر نفسه .

٢ــ المصدر نفسه / ٣ / ٢٤١ . ٢٤٢ .

٣ــ نفس المصدر .

كلامهم ، وانسجاماً ... فيكون رأي سيبويه مطابقاً ؟

فنعيد الكرة ونقول : لِمَ كانت هذه القوّة في الأول ، الذي أنكره ؟

ولِمَ هذه السهولة ، التي بنى عليها ؟

وإذا كان ما اشتهر على ألسنة أهل اللغة ليس بالأسهل ، فأيّهما يُقدّم ؟

هذا أولاً وثانياً ، نراه في الخاتمة حين لخَّص أهمَّ النتائج يقول في النتيجة العاشرة : (التغليب يكون للمذكر على المؤنث لِعموم التذكير وأنه الأصل ، ويغلب المؤنث على المذكر في التاريخ ، لأنّ التاريخ العربي ، بُنيَ على تغليب الليالي .)[١] . إنتهى .

وسوف ترى التاريخ العربي وما فيه ، بعد قليل ، ثم إنه هنا جعل التغليب للتذكير ، لأنه الأصل ، ولكن ، لِمَ كان هو الأصل ؟

هذا ما لم يبينه هنا ، مع أنه كان أجدر بالذكر في هذا الموضع ، من أن يذكره في التعريف ، فهو ليس من حيثيات التعريف كما هو ظاهر .

ومع الأسف بقية دراسته لم تقع في أيدينا فلعلّ الرجل ذكر فيها شيئاً فاتنا .

نعم يمكن أن يكون ما ذكره من "عموم التذكير" هو العلة ، ولكن لم أفهم المقصود منه ، هل هيَ الأقوائية التي رفضها ، أم هي السهولة التي رجَّحها ، أم هكذا تكلمت العرب ؟

مع إنّ العطف يدل على التعدد ، فرجعنا إلى ما بدأنا به هذا البحث : مِن أنه هو الأصل ، وكفى .

١ــ المصدر نفسه / الخاتمة .

وكل الذي رأيت استشهاد باللغة نفسها ، ودوران حول الإشكال نفسه دون حلِّه .

فالأخفيّة ، والتمكن عند سيبوية ، والأخفية والقوّة عند الثعلبي ، وغيره ، وقول ابن أبي إسحاق وأبي عمرو ، والسهولة والتيسير في النطق ، أو الانسجام مع ما شاع ، واشتهر على ألسنة أهل اللغة ، لا يجيب عن أصل السؤال ، لِمَ كان هذا الأصل ؟

فكل ذلك دوران على نفس اللغة ، فيبقى الإشكال هو الإشكال عليها ، وعلى الأصل الذي هو فيها .

فهذا مثله مثل جواب الذي سأل كيف نعرف الطائر ذكر هو أم أنثى ؟

فقيل له إذا حَطّ الطائر ، فَصَفِّقْ له ، فإذا طار ، فهو ذكر ، وإذا طارتْ ، فهيَ أنثى ، فتمعّن .

هل سبب التغليب المعنى ؟!

وقبل الخوض بذلك نقول :

المؤنث الحقيقي ، والمؤنث اللفظي

وكأنّه قد فاتهم ، فلا يفوتنا من أنَّ هناك :

أنثى يقابلها ذكر . المعبّر عنهما بالزوجين ، وهذا ما هو موجود في الطبيعة .

وهناك في اللغة تذكير وتأنيث ، وهما غير الأنثى والذكر ، ولا علاقة بينهما في كثير من الأحيان ، فهما مؤنث ومذكر لغوي .

فالمؤنث قد يكون حقيقياً : كناقة .

قال ابن الحاجب : (وهو حقيقي ولفظي ، فالحقيقي : ما بِإزائه ذَكَرٌ في الحيوان ، كامرأة ، وناقة . واللفظي بخلافه ، كظلمة ، وعين .)[١].

والأول له ضمائرُه ، وأسماءُ إشارةٍ خاصة به ، وأسماءٌ موصولة .

والذي ليس مؤنثاً حقيقياً : يُسمى بالمؤنث المجازي : مثل : عين ، دار، سعادة ، زهرة ، وردة .

وهذه الكلمات تعرف بتتبع اللغة ، وليس لها قاعدة خاصة .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، لديهم اصطلاح آخر :

يسمى بالمؤنث اللفظي ، ويُقصد به ما كان في نهايته أحد حروف ثلاثة :

التاء المربوطة ، كعائشة ، وطلحة ، والألف المقصورة ك"سلمى" ، والألف الممدودة ك"سماء" .

وإذا كان التأنيث اللفظي اسماً لرجل ، مثل : طلحة ، زكرياء ، فلا يفوتنا من أنه يعامل معاملة المذكر في الضمائر ، وغيرها .

والمؤنث الخالي من تلك العلامات ، يُسمى بالمؤنث المعنوي : مثل سعاد ، وأرض .

من المثالين نعلم لماذا قسّموا المؤنث أيضاً لمؤنث حقيقي ، وهو نفس ما عرفناه أولاً ، كالمثال الأول ، ولمؤنث مجازي كالثاني .

١ــ محمد بن الحسن الإستربادي الرضي / شرح كافية ابن الحاجب / ٣ / ٣٣٨ .

فعليه يمكن أن يكون هناك :

مؤنث معنويّ ، حقيقي ، لفظيّ : فاطمة ، صفيّة ، سلمى ، خنساء .

مؤنث لفظي ، لكنه مذكر معنوي : طلحة ، طَرَفَة ، كَنانَة ، وزكرياء .

ويلحق به مثل : قالت الرجال ، أي مجموعة الرجال .

ومن أمثلة التأنيث المعنوي ، ما هو حقيقي التأنيث ، مثل أسماء النساء : هند ، وهدى ، وزينب ، ومن الحيوان مثل : عَناق، ومنه مجازي التأنيث مثل : عُقاب ، وأرض .

والمؤنث المعنوي المجازي : كالأرض ، والشمس ، والنار والحرب ، لك أن تُذَكِّرَ فعله أو شبهه ، إذا كان متقدِّماً عليه : كقولك : طلعت الشمس ، أو طلع الشمس ؛ أو هي الشمس أو هو الشمس .

وتنبيهات ، لابد من ذكرها ، ونحن قد دخلنا هذا العالم :

هناك بعض الأسماء تذكر وتؤنث : السوق ، الذراع ، الخمر ، الطريق ، اللسان ، قَفا .

وبعضها يحوي علامة التأنيث ويطلق على الصنفين ، الذكر والأنثى : حية ، شاء ، سخلة ، حمامة ، نملة ، فأصل الكلمة التأنيث ، وإن وقعت على مذكر .

وبعضها يقع للمذكر والمؤنث : إنسان ، فرس ، بعير .

وهناك صفات أيضاً بهذه الصفة : مثل : امرأة رَبعة ، ورجل رَبعة ...وهكذا .

ولا يفوتنا التذكير ، من أنّها سماعية ، للإطلاع عليها على المرء أن يختلط

بالعرب الأصليين أنفسهم ، أو عليه أن يرجع إلى قواميس اللغة ، في هذه الأيام .

٦) : ولعلنا لو أرجعنا ذلك كله إلى المعنى لَحُلَّ اللُّغزُ ، ولما عاد هناك انتصار ذكري ، على تقهقر أنثوي ، لأنه ربما يُؤنّث المذكر في لغة العرب أيضاً .

قال تعالى : ((أُوْلَئِكَهُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ **الْفِرْدَوْسَ** هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ...))[١] ، فأنّث الفردوس ، وقال تعالى : ((مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ **عَشْرُ** أَمْثَالِهَا...))[٢].

قال السيوطي في بيان هاتين الآيتين المباركتين :

(ومنها : تأنيث المذكر ، نحو : " الذين يرثون الفردوس هم فيها..." **أنث** الفردوس وهو مذكر ، حملاً على معنى الجنّة ، " من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها"**أنَّث** عشراً ، حيث حذف الهاء مع إضافتها إلى الأمثال ، وأحدها مذكر فقيل لإضافة الأمثال إلى مؤنث ، وهو ضمير الحسنات فاكتسب منه التأنيث .)[٣].

وقال صاحب مجمع البيان في تفسير هذه الآية (وهو اسم من أسماء الجنة عن الحسن ، ولذلك أنّث فقال (﴿هم فيها خالدون﴾) .)[٤] .

وفي مورد الآية الثانية ، قال : (والأولى أن يكون أمثالها ، غير صفة في قوله ﴿ عشر أمثالها ﴾ ، بل يكون محمولاً على المعنى ، فأنَّث الأمثال لمّا كان في معنى الحسنات ، وحكي عن أبي عمرو أنه سمع أعرابياً يقول : فلان لغوب ، جاءته

---

١ _سورة المؤمنون / ١٠ – ١١ .

٢_ الأنعام / ١٦٠ .

٣_ السيوطي / الإتقان في علوم القران / ص٢٦٣ .

٤_الفضل بن الحسين الطبرسي (قدس سره) .

كتابي ، فاحتقرها ، قال : فقلتُ له : أتقول جاءته كتابي ؟ قال نعم ، أليس بصحيفة ؟)[١] .

ولذلك شواهد كثيرة في لغة العرب :

(قَالَ اللَّيْث : السِّين حرفُ هِجاءٍ يذكَّر ويؤنَّث، هَذِه سينٌ ، وَهَذَا سِينٌ ، فَمن أَنَّث فعلى توهُّم الْكَلِمَة ، وَمن ذَكَّر فعلى توهُّم الْحَرْف .)[٢] .

(وَهَذَا كافٌ حَسَن ، وَكَذَلِكَ ، سَائِر حُرُوف المعجم ، فَمن قَالَ : هَذِه كَاف، أَنّث لِمَعْنى الْكَلِمَة ؛ وَمن ذكَّر فلمعنى الحَرْف .)[٣] .

(وَقَالَ أهل اللُّغَة : الفِرْدوس مُذَكَّر ، وَإِنَّمَا أُنِّث فِي قَوْله : { الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } ، لِأَنَّهُ عَنى بِهِ الْجنَّة .)[٤] .

(وَقَالَ الفَراء : (المَنون) تُذكَّر وتُؤنث ، فَمن ذكّره أَراد بهَا الدَّهر ، وَمن أَنَّث أَراد بهَا المَنِية .) [٥] ،وهو هنا قصد لفظة المنون ، كما هو ظاهر ، لأنه أنّث .

قال ابن جني في خصائصه : (إعلم أنّ هذا الشَّرْجَ غَورٌ من العربية بعيد، ومذهبٌ نازِحٌ فسيحٌ .)[٦] .

ولو جعل الثعالبي الفصل التالي ، الذي سنذكره عِلَّة في تقديم المذكر على

١ــ المصدر نفسه / في تفسير الآية المباركة في مبحث الحجة .

٢ــ الأزهري ، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي ، أبو منصور (٢٨٢هـ ٣٧٠هـ.) / تهذيب اللغة/ ج١٣ / ص٥٥ .

٣ــ المصدر نفسه / ج١٥ / ٤٨٩ .

٤ــ تهذيب اللغة / ج١٣ / ١٠٤ .

٥ ــ المصدر نفسه / ج١٥ / ٣٤٠ .

٦ــ ابن جني / الخصائص / ج٢ / ص٤١١ .

المؤنث ، لما كان من الغالين ، لأنه في اللغة يمكن أن نقصد المعنى دون اللفظ ، فتنقلب الأمور ، كما رأينا ونرى :

قال الثعالبي في "فقه اللغة ، وأسرار العربية" :

(فصل في حمل اللفظ على المعنى في تذكير المؤنث ، وتأنيث المذكر :

من سنن العرب ترك حكم ظاهر اللفظ ، وحمله على معناه ، كما يقولون : ثلاثةُ أنفس ، والنفس مؤنثة ، وإنما حملوه على معنى الإنسان ، أو معنى الشّخص.

قال الشاعر :

مـــا عنـــدنا إلا ثلاثـــة أنفـــسِ مِثلُ النُّجومِ تـلألأت في الحِنـدِسِ

وقال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة :

فكـان مجِنِّـي دون مـا كنـتُ أتَّقـي ثلاثُ شُخوصٍ كاعِبانِ وَمُعْصِر

فحمل ذلك على أنهنّ نساء.

وقال الأعشى :

لِقـــومٍ وكـــانوا هُـــمُ المُنْفِـــدِينَ شَرَبَهُـــــمُ قَبْـــــلَ تَنْفادِهـــــا

فأنَّث الشراب لما كان الخمر المعنيّ ، وهي مؤنثة .

كما ذكَّر الكفّ وهي مؤنثة في قوله :

أرى رجـــلاً مـــنهم أســـيفاً كـــأنَّما يَضُـــمُّ إلى كَشْـــحيه كفَّـــاً مُخَضَّـــبا

فحمل الكلام على العضو ، وهو مذكر .

وكما قال الآخر :

يـا أيهـا الرَّاكـب المُزجـي مَطِّيتـه سائلْ بني أسدٍ مـا هـذهِ الصَّـوتُ

أي ما هذه الجَلَبة .

وقال آخر:

مِـنَ النَّـاسِ إنسـانان دَيْنِـي عَلـيهما مَليئـان لـو شَـاءَا لقـد قَضَـياني

خليـلَيَّ أمّا أمُّ عَمـرٍو فَواحـدٌ وأمَّـا عـنِ الثـاني فـلا تَسـلاني

فحمل المعنى على الإنسان ، أو على الشخص .

وفي القرآن

((وأعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالساعة سَعيراً))[١] ، والسَّعير مذكر ، ثمَّ قال : ((إذا رَأتهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ))[٢] ، فحمله على النار فأنّثه .

وقال عزَّ إسمه : ((فأحْيَينا بهِ بَلْدَةً ميتاً))[٣] ، ولم يقل ميتة ، لأنه حمله على المكان .

وقال جلّ ثناؤه : " السَّماء مُنْفَطِرٌ بِه " ، فذكر السّماء ، وهي مؤنثة ، لأنه

١ــ سورة الفرقان / ١١ .

٢ــ نفس السورة / ١٢ .

٣ــ من الآيات المباركات : ((ونزلنا من السماء ماءاً مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج)) / سورة ق / ٩-١١ .

حمل الكلام على السقف ، وكل ما علاك وأظلك فهو سماء ، والله أعلم .)[١].

إنتهى .

ومثله قوله تعالى :

((وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ))[٢]

وهنا لاحظوا ابن السكيت كيف جمع الأمرين :

وكما قال ابن السكيت في كتاب المذكر والمؤنث : (أَنَّث الشخوص لأنها شخوص إناث ، فلو قلت : ثلاثة شخوص كان أجود ، لأن الشخص ذكر ، وإن كان لأنثى...) .

فأولاً ، تبع المعنى ، فأنث الشخوص ، وكما قال لأنها شخوص إناث ، وثانياً قال ، فلو قلت ... لأن الشخص ذكر ، ويقصد هنا لفظ " شخص" ، ثم قال : (ومما اجتمعت عليه العرب لإيثار المُضمر على الظاهر ، قولهم : ثلاثة أنفس ، وثلاثة أعيان. ..) ، فقصد هنا ما وراء اللفظين ، وهما يدلان على أعين الرجال وأنفسهم .

ولكن عندما قال (والخليل يختار: ثلاث أعين .) ، وجّه ما قاله الخليل بقوله (والعين والنفس أنثيان) ، فقصد اللفظ دون المعنى ، ولكنه التفت إلى ما قالته العرب أولاً ، فقال : (فذهبوا إلى أعيان الرجال ، وأنفس الرجال...) ، كما ذكرنا .

١ــ عبد الله بن محمد بن أسماعيل المعروف بأبي المنصور الثعالبي (٣٥٠ هـ- ٤٣٠ هـ)/الفصل ٢٥.
٢ــ سورة الزخرف / ١١ .

ويؤكده ماقاله أخيراً : (فإذا وجهت النفس إلى الرجل والمرأة ، ذهبت بهما جميعاً إلى التذكير ، لأنه غير مؤنث ، فتصير النفس تؤدي عن الإنسان ، ويؤدي الإنسان عن الذكر والأنثى ، فتقول : ثلاثة أنفس ، كما تقول : ثلاثة من الناس ، وإن عنيت نساءاً .

فإن أردت الزوج كانت النفس أنثى .

وإذا أفردتها (أي النفس) بفعل ووصفتها به ، عاملتها معاملة التأنيث ، كما قال الله تعالى : ((خلقكم من نفسٍ واحدة)) ولم يقل واحد ، وهو آدم .

وقد يجوز لك أن تذهب إلى المعنى ، فإن كانت أنثى أنثت ، وإن كان ذكراً ذكّرت ، وليس بالوجه .) . إنتهى .

وقال سيبويه : (....ومثل ذلك قولك : خامس خمسة إذا كن أربع نسوة فيهن رجل ، كأنك قلت : هو تمام خمسة .

وتقول :هوخامس أربع ، إذا أردت أنه صيّرأربع نسوةخمسة .) [١].

واللغة العربية بالخصوص لِسعتها استوعبت ذلك ، ونظمته بشكل دقيق ، ملفت لنظر الفاحص ، والمتمعن : قد جعلت لكل معنى قريب ، أو بعيد ما يقابله من لفظ دقيق ، مبني على ركائز عجيبة ، والذي يتبحر فيها ربما يكتشف بعضها ، ودونك كتب أهل اللغة ، وخاصّة فقهها ، كما رأيت ، وسمعت .

فالإستعمال أوسع من اللفظ نفسه ، فمرة يُلاحظون المعنى الذي فيه ، وأخرى يراعون اللفظ بما هو .

---

١ ـ سيبويه /الكتاب / ٣/ ٥٦١ .

وضربنا لك " النفس " و " العين " ، و" الشخص " ، فلا نُعيد .[١]

وأخرى إنهم يقولون من أن البعض يأخذ حكم ما أضيف إليه بالتذكير والتأنيث ، ومثاله قول جرير :

لمّا أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينةِ والجبالُ الخُشَّعُ

فهنا قال : تواضعت سور المدينةِ ، بملاحظة المدينة ، لا السور . وهناك الكثير منه في كلامهم .[٢]

بل يذهبون لأكثر من ذلك ، فيُؤَوِّلون اللفظ المذكر باللفظ المؤنث ، وينحتون الجملة على ذلك مثاله :

الشراب : فعلى تأويله بالخمرة ، يؤنثون ، ويذكِّرون الدار على تأويل أنها مكان .[٣]

فتلاحظ بعد هذا كله أنه لا شأن للذكورية والأنوثية في ذلك أصلاً ، بل هو شأن من شؤون الكلام ، ومعانيه ، وأساليبه .

ولكن هذا كله سوف يخرج عن التغليب المتنازع فيه عن سبب تقديم التذكير على التأنيث .

وهذا لدقته مع الأسف اختلط على بعضهم ، والتغليبَ الوارد الذي نحن بصدده ، مع ان هذا شئ ، والتغليب شئ آخر ، فتأمّل .

١_ أنظر في ذلك كله سيبويه / الكتاب / ٣ / ٥٣٥ .

٢_ أنظر : سيبويه / الكتاب / ج١ / ٥١ – ٥٤ .

٣_ أنظر في ذلك سيبويه / الكتاب / ج٢ / ١٨٠ ؛ ابن الشجري / الأمالي الشجرية / ١ / ٢٤٣ .

إستثناء بعض المواضع عن التغليب

عند اجتماع المذكر والمؤنث ، وبيان الخلط بينه وبين موارد أخر:

ذكر الحريري في "درّة الغواص" : من أصول العربية أنه متى اجتمع المذكر والمؤنث ، غلب حكم المذكر على المؤنث ، إلا في موضعين :

أحدهما : أنك متى أردت تثنية المذكر والأنثى من الضباع ، قلت : ضبعان ، فأجريت التثنية على لفظ المؤنث ، الذي هو ضبع ، لا على لفظ المذكر ، الذي هو ضبعان .

وإنما فُعِلَ ذلك ، فراراً مما كان يجتمع من الزوائد ، لو ثُنِّيَ على لفظ المذكر[١].

والموضع الثاني : أنهم في باب التاريخ ، أرَّخوا بالليالي دون الأيام .

وإنما فعلوا ذلك مراعاةً للأسبق ، والأسبق من الشهر ليلته .

ومن كلامهم : سرنا عشراً من بين يوم وليلة . إنتهى .

وقد بيّن سهوَ القوم ابنُ هشام إذ قال في "المُغني" :

(قالوا: يغلب المؤنث على المذكر في مسألتين : إحداهما : ضبعان في تثنية ضبع للمؤنث وضبعان للمذكر ، إذ لم يقولوا : ضبعانان .

والثانية : التأريخ ، فإنهم أرخوا بالليالي دون الأيام ، ذكر ذلك الزجّاجي ، وجماعة .

وهو سهوٌ ، فإنّ حقيقة التغليب أن يجتمع شيئان فيجري حكم أحدهما على

١ــ الضَّبُعُ والضَّبْعُ ضَرْبٌ من السِّباعِ، أُنثى، والجمع أضْبُعٌ وضِباعٌ... والذكر ضِبْعانٌ ، لا يكون بالنون والألف إلا للمذكر . أنظر قواميس اللغة منها : لسان العرب ، مادة ضبع .

الآخر ، ولا يجتمع الليل والنهار ، ولا هنا تعبيرٌ عن شيئين بلفظ أحدهما ، وإنما أرخت العرب بالليالي لسبقها ، إذ كانت أشهرهم قمرية ، والقمر إنما يطلع ليلاً .

وإنما المسألة الصحيحة ، قولك : كتبته لثلاثٍ ، بين يومٍ وليلة .

وضابطه : أن يكون معنا عددٌ مميّز بمذكرٍ ، كلاهما ممّا لا يعقل ، وفُصِلا مِنَ العدد ، بكلمة بين .

قال : فطافت ثلاثاً بين يومٍ وليلة .) . إنتهى.

قال ابن مالك في فصل التاريخ من شرح الكافية الشافية : (أول الشهر ليلة طلوع هلاله ، فلذلك أوثر في التاريخ قصد الليالي ، واستغني عن قصد الأيام ، لأن كل ليلة من أيام الشهر يتبعها يومٌ ، فأغناهم قد المتبوع عن التابع .

وليس هذا من التغليب ، لأنّ التغليب هو أن تعم كلا الصنفين بلفظ أحدهما ، كقولك : الزيدون والهندات خرجوا .

فالواو قد عمت الزيدين والهندات ، تغليباً للمذكر .

وقولك : كتب لخمس خلون ، لا يتناول إلا الليالي ، والأيامُ مستغنىً عن ذكرها ، لكون المراد مفهوماً .) . إنتهى .

إذا عرفت هذا كله فستجد الإرباك عند الأكثر ، فهذا القرطبي مثلاً يقول عند قوله تعالى :

{ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ } [١]

١ــ سورة يوسف / ٢٩ .

({إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ } ، ولم يقل من الخاطئات ؛ لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث ، فغلّب المذكر ؛ والمعنى : من الناس الخاطئين ، أو من القوم الخاطئين ؛ مثل :

{ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ } [١] ، { وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ } [٢]) . إنتهى .

ولو حللت عبارته : قال أولاً (ولم يقل من الخاطئات ؛ لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث ، فغلّب المذكر) ، فإذا كان التغليب ، فما معنى قوله بعدها مباشرة : (والمعنى : من الناس الخاطئين ، أو من القوم الخاطئين) ؟!

لأنه إذا كان هناك قصد للناس الذين صفتهم الخطأ ، والناس مذكر ، فأين التغليب ؟

وكذا الحديث لو كان المراد القوم ، فهو لفظ مذكر ، فأين التغليب ؟

نعم يمكن أن يكون ثمة تغليب إذا كان المقصود الخاطئين لا الناس ، فالخاطئون يتكونون من الخاطئين والخاطئات ، وهو استعمل جمع المذكر السالم للدلالة على الجميع .

ولكن شيخ الطائفة صاحب التبيان قالها واضحة : (وإنما قال "من الخاطئين" ، ولم يقل من الخاطئات ، تغليباً للمذكر على المؤنث إذا اختلطا ، كما تقول : عبيدك ، وإماؤك جاؤني .)[٣] . إنتهى .

وهكذا وقع كثير من العلماء بهذا المطبِّ ، فانظر لعبارة ابن عاشور ، إذ جاء

١ــ النمل / ٤٣ .

٢ــ التحريم / ١٢ .

٣ ــ شيخ الطائفة المحقة الشيخ

في " التحرير والتنوير " ، عند قوله تعالى في سورة يونس : { ولَوْ أنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما في الأَرْضِ لافْتَـدَتْ بِهِ وأسَـرُّوا النَّدامَةَ } [١]

(وضمير { أَسَـرُّوا } عائد إلى { كُلّ نَفْسٍ } باعتبار المعنى ، مع تغليب المذكر على المؤنث .) . إنتهى .

فإذا كان اعتباراً للمعنى ، فما معنى التغليب ؟

---

١ _ الآية ٥٤.

نتيجة البحث

التغليب لا عيب فيه على أحد ، ولا انتقاص :

والتغليب من اختصارات اللغة ، يمكن أن تكون للمتكلم باباً واسعاً للبلاغة ، والفن الرائع ، بالإختصار غير المُخِل ، إذا كان مناسباً للكلام ومتناسقاً معه ، وبهذا تتفاوت الأقدار .

وبهذا اللحاظ البلاغي العميق جاء القران الكريم في موارده من التغليب .

ولذا في بعض الموارد كان من الممكن إفرادها ، ولكن لبيان سمو المرأة ، وعلو قدرها لم يفعل ذلك ، ولاعتبارات أخر .

ففي قوله تعالى : ((لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا))[1]

جاء بالتفصيل لأن حق المرأة كان يُغمط في السابق ، فلابدّ مِن ذكرها مفردةً ، لتأكيد إرثها ، وتسجيله .

وبهذا اللحاظ الدقيق ، لم يبخل القران بنصوصٍ أفرد التأنيث والتذكير فيها ، إذا كان الحق مصوناً ، والكلام ربما يوجب إرباكاً بالتغليب ، أو يكون غلطاً .

قال تعالى : ((مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ))[2]

ولم يقل امرأة ، ولا ما يشمل الصنفين ، وذلك لِدِقَّةِ المعنى ، إذ يمكن

١ــ النساء / ٧ .

٢ــ الأحزاب / ٤ .

أن يكون في جوف الطرف الثاني قلبان ، إذا كانت حاملاً .

وقد قدّم في بعض الموارد ، الأنثى على الذكر ، ففي هبة الله ، وما أعظم ما يهبه الله !

على أقل تقدير إنها هبة منسوبة إليه ، فاكتسبت العظمة منه ، قال تعالى : ((للهَّ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ))[١]

ولأي سبب قدِّمت ، فإنها قدِّمَت .

فإذاً الأسلوب العربي له دخل في ذلك كله ، وليس ما يُتَوَّهم من الأشرفية المطلقة .

وأخيراً ، لا آخراً نُذَكِّر ، ونقول : من أنَّ التغليب الذي نحن الآن بصدده ، يجب أن نفهم أنه واردٌ في أسلوب اللغة ، وأدبها وفقهها ، وليس في الواقع الخارجي الطبيعي .

أي تغليب في الإصطلاح ، دون الطبيعة .

وبعد الذي رأيت وسمعت كله ، أبسط لك ما الله تعالى دلني عليه ، ولعلها العلة الحقيقية وراء ذلك كله ، وليس فيها غبن لا للذكر ، ولا للأنثى .

أي علة أن يكون التغليب للمذكر دون المؤنث .

وما هي إلا حقيقة الخلقة ، فهي التي تجرنا إلى ذلك ، وكم ترك الأولون للآخرين ، إذْ يُمكن أن يكون التقديم للذكر دون الأنثى في التغليب ، لا

١ـ الشورى / ٤٩ .

للأشرفية ، ولا للأصلية ، ولا للأولية ، ولا للسهولة والإنسجام[١] ، بل **لأنَّ الأنثى هيَ المنفعل ، والذكر هو الفاعل** ، فإذا لاحظنا الموجودات كلها ، لشاهدنا ذلك بعين البصيرة .

وحتى كلمة الأنثى ، لو لاحظناها في كلام العرب فإنّها أخِذَتْ من اللين ، فهذا صاحب لسان العرب يقول :

(وأَرض مِئْناثٌ وأَنيثةٌ : سَهْلة مُنْبِتة ، خَلِيقةٌ بالنَّبات ، ليست بغليظة .

وفي الصحاح : تُنْبتُ البَقْلَ سَهْلةٌ .

وبلدٌ أَنِيثٌ : لَيِّنٌ سَهْل ؛ حكاه ابن الأَعرابي .

ومكانٌ أَنِيثٌ إِذا أَسْرَع نباتُه ، وكَثُر .

قال امرؤ القيس :

بمَيْثٍ أَنيثٍ في رياضٍ دَمِيثةٍ يُحيلُ سَوافِيها بماءِ فَضِيضِ

ومن كلامهم : بلد دَمِيثٌ أَنِيثٌ ، طَيِّبُ الرَّيْعةِ ، مَرْتُ العُودِ .

وزعم ابن الأَعرابي أَن المرأَة إِنما سميت أُنثى ، من البلد الأنيث ، قال : لأَن المرأَة أَلْيَنُ من الرجل ، وسميت أُنثى للينها .

قال ابن سيده: فأَصْلُ هذا الباب على قوله إِنما هو الأَنيثُ، الذي هو اللَّيِّنُ)[٢].

ومن هنا قالوا : أنث الحديد ، أي انفعل ، ولان .

١ــ وإن كان هذا مطلوباً في اللسان العربي ، ومراداً .

٢ــ إبن منظور / لسان العرب / مادة أنث .

فأيّها يحسن للعقل أن يُقدِّم الفاعل ، أم المنفعل ؟

ومن هنا قدّم مَن قدّم المذكر على المؤنث ، أشعر بذلك أم لم يشعر ، لا لإنه أفضل منه ، فانتبه .

ودقق الملاحظة في سبب تسميتها أنثى ، حتى لا يرتبك عليك المطلب ، وتقول من أن العرب قد سموها بذلك ، وهي ليست كذلك .

وهذا أمر ملفتٌ ، في كل ذكر وأنثى ، فالذكر هو الذي يُثير ، والأنثى هيَ التي يتحرك فيها ما يتحرك ، لكي تعطي الثمار ، ولذا قلنا فاعلٌ ، ومنفعل .

فكلاهما الذكر والأنثى ، سببا التكامل ، ولكنَّ الأنثى هيَ الأرض التي تهتزُّ، وتربت فتنبنت .

فالتساوي من جميع الجهات ، والتقديم في هذا ، لِهذه الجهة .

فاللغة من حيث الألفاظ والمعاني متناسقة ، في التذكير والتأنيث ، ومتساوية ولكنَّ التقدم في مسألة التغليب لِهذه الجهة ، فخذها ، ولا تشطط ، والله العالم .

وبناءاً على الذي قدّمناه ، ويظهر لنا من تتبع اللغة العربية ، أن العربي الفصيح يستطيع أن يأتي بكلام تام وجميل ولا يذكر فيه إلا التأنيث ، وهذا عائد لقدرة الشخص ، وتمكُّنِه من اللغة العربية ، فتكون هذه المقطوعة حينئذٍ أشبه ما تكون بخطبة أمير المؤمنين عليه السلام الخالية من الألف ، أو الأخرى الخالية من النقاط ، والأمثلة تضرب ولا تقاس ، فافهمها .

فلا نحتاج لمن يطالب بتوليد لغة خاصة للإناث ، ولو حدث ذلك ، فسيأتي الإشكال من الجهة الأخرى .

التأنيث لا عيب فيه في اللغة

ونضيف إلى ذلك :

هناك أوزان يستوي فيها المؤنث والمذكر : وزن "فعيل" : جريح ، قتيل . وزِنَة "فعول" : شكور ، غفور ، صبور .

وهناك صفات خاصة للمرأة ، لذا لم يرد فيها حرف يدلّ على التأنيث : حائض ، طامث ، ومقابل تلك طاهر ، حامل ، ومقابلها حائل .

وهناك مثل : طالق ، ناشز : إذا جاءت وحدها تكون كذلك ، وإذا ذُكِر معها الجانب الثاني ، فستظهر العلامة ، هذا الرجل طالق ، وتلك طالقة ؛ وهذا ناشز ، وهذه ناشزة .

وقد جاءت كلها على الوزنين المذكورين ، فانتبه .

وهناك ألفاظٌ كثيرة ، تؤنث مرّةً ، وأخرى تذكّر : النفس ، الروح ، اللسان ، العنق ، الكتف ، البطن ، القوس ، الرمح ، الفأس ، السكين ، الصَّاع ، السُّوق ، الطريق ، الصراط ، الفُلك ، الفردوس ، الجحيم ، الدار ، الرَحِم ، النوى ، اليمين .....وهكذا .

وقد ورد بعضها في القران الكريم ، قال تعالى :

((وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي **الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**))[1]

وقال تعالى : ((إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

١ــ سورة يس / ٤١ .

وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ))[1]

ففي الأولى ذكَّر "الفُلك" ، وفي الآية الثانية أنَّث .

وأسماء الاستفهام مشتركة ، والشرط كذلك .

وقد مرَّ عليك قبل قليل ما ذكره الثعالبي في فقه اللغة من الآيات المباركة ، التي فيها بعض الكلمات التي هيَ مُذَكَّرة ، ولكنّها أُنِّثتْ بالعناية ، أو بالعكس ، كانت مؤنَّثة ، وذكِّرَتْ كذلك .

بل في بعض الأحيان تكون بعض الألفاظ مذكّرة ، فإذا اهتزّت وربَت ، أو صارت عظيمة ، فللعظمة تؤنث .

فلذا ينبغي التنبيه من أنّ التأنيث لا عيب فيه في اللغة أصلاً ، ويدلُّك على هذا تتبع الألفاظ ، والمعاني عندهم .

فالمعشر مثلاً ، الذي يتألف من مجموع الرجال ، أو من مجموع النساء ، أو من كليهما تستطيع أن تخاطبهم بالجماعة ، فمجموع الرجال جماعة ، والجماعة ، كما تلاحظ ، كلمة مؤنَّثة ، بل لو لاحظت كلمة أخرى ، والتي هي عبارة عن مجموع الرجال ، فقط ، دون النساء ، وأعني بها "العشيرة" ، فهي كلمة لا تطلق إلا على الرجال ، دون النساء[2] ، مع هذا فهي كلمة مؤنثة .

١ــ سورة البقرة / ١٦٤ .

٢ــ راجع بذلك كتب اللغة ، ومنها لسان العرب .

بل أكثر من ذلك هذا الذي نتلفظ به ، المؤلف من حروف ، هو لفظ ، وهو يطلق على هذا الصوت المعيّن ، وإن لم يكن ذا معنى ، ولكنه لو صار ذا معنى ، فينقلب تركيبه ، ليصبح "كلمة" ، والكلمة لفظ مؤنث .

فهو قبل أن يفيد معنى ، مذكّر ، وبعد أن صار ذا معنى أصبح مؤنثاً ؛ فدقِّق بذلك ، تر العجب .

فلا فرق بين المؤنث والمذكر من حيث تركيب الكلمات ، ومعانيها بجهة الدونية والفوقية ، والكبرياء والإستعلاء ، والذلة والخسَّة ، ومن هنا كانت الشمس وهيَ أعظم من أن توصف مؤنثة ، والقمر الذي هو أحطُّ منها ، من جهاتٍ كثيرة ، مُذكّر .

والأرض التي هيَ أصل الحياة ، والتي قال الله تعالى فيها :

((مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى))[1]

مؤنثٌ ، بل الحياة التي هيَ فرّقتنا عن الجماد ، وبها كُرّمْنا بالعقل ، كذلك هي مؤنثة .

ولهذا ما كان لدينا ميزان لحدِّ الآن نعرف به المذكر والمؤنث غير الحقيقي في لغتنا ، ولا يتم هذا إلا بتتبع كلام العرب .

ولعلّ هذا ما دعى بعضَهم ليقول في نهاية بحثٍ له ، متعلق بهذه الأمور :

(باختصار، ليس ثمة صعوبة في التفريق بين المذكر الحقيقي ، والمؤنث الحقيقي ، لدى العربي ، إلَّا أنّ الصعوبة تكمن في غير الحقيقي ، من المذكر

١ــ سورة طه / ٥٥ .

والمؤنث ، ولا بدَّ مِنَ اللجوء إلى السماع ، والحفظ .)[١] . إنتهى .

بعد أن قال في بداية بحثه : (نظرة خاطفة على مجموعة من اللغات البشرية الحيّة ، بصدد موضوع " الجنس اللغوي/ القواعدي" ، تُظهر بجلاء أن هذا التصنيف الثنائي ، أو الثلاثي ، وما فوق ، لا يعكس أية نوايا استعلائية ، أو استفالية .)[٢] .إنتهى .

والدليل عليه ما ذكرنا ، وما سنذكر تتمَّةً .

فالقران العظيم مذكر ، لكن ما يتكوّن منه ، يُسمّى ب"السورة" لفظ مؤنّث ، وما تتكوّن منه السورة سُميَ ب"الآية" لفظ مؤنث ، وهذا ما نطق به القران ، وصرّح ، إلى أن نصل إلى ما تتكون منه الآية الذي هو أساس الكلام ما هو إلا "كلمة" .

فلا عيب في ذلك كله ، ولا غضاضة .

وبهذا لو نظرت لِما يقوله البعض ، لِمَ لمْ نستعمل ضمير الإناث له ، سبحانه ، وتعالى ؟![٣] ، لَرَأيتَ وهنَهُ ، وعدمَ استقامتِهِ .

والجواب واضح وبيّن لمن تدبر القول ، وأحسنه ، فالله سبحانه وتعالى ليس ذكراً ، سبحانه عمّا يصفون .

١ــ أ.د. أديب شحادة ، استاذ في جامعة هلنسكي / بحثٌ بعنوان :حول التذكير والتأنيث في اللغة / جماليا (موقع ألكتروني) / تاريخ النشر : ٢٠١٤/٠٥/٠٤ .

٢ــ المصدر السابق نفسه .

٣ــ هذا القول وأمثاله تبنته وصرحت به أكثر من غيرها ، الدكتورة نوال السعداوي (وهي كاتبة وروائية علمانية ، مصرية ، زوجة رسمية للدكتور شريف حتاتة ، وهو طبيب وروائي ، شيوعي ماركسي)، أنظر بعض كتاباتها ، ومنها ما في "الفيس بك" ، التابع لها ، مثلاً .

فهو الذي خلق الذكر ، والأنثى .

فهذا الاستعمال كان في لغة العرب ، وقد جاء في القران كذلك ، لأنه نزل كما قال تعالى :

((إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ))[١] ، وقد نزل ((بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ))[٢]

والمُبْدئُ المُصوِّرُ **هُوَالفاعِل** ، والخالقُ للأشياء ، فضمير التذكير أولى ، لمن كان كذلك ، وخاصة إذا كانت اللغة عاجزةً للإحاطة ، هذا أولاً .

وثانياً : لفظ "اللهِ" لفظٌ مذكر ، فضمير المذكر يعود عليه .

وثالثاً : لك أن تقول : هو سبحانه "شئ" ، ولكن لا كالأشياء ، فضمير المذكر يعود على "شئ" ، المعرّف به الله سبحانه ، و"الشئ" مذكر .

ثم للبيان الأكثر نقول :

هناك شئٌ ، مأخوذ من اللغة ، وهناك شئٌ ، وُضِعَ من اللغة ، على شيءٍ ، لِكونه ذا صفةٍ معيّنة .

فالضمير العائد على الله سبحانه ، مأخوذٌ من اللغة ، لا أنه وضع على الباري لأنه ذا صفة كذائية ، أي أن الله ليس ذكراً ، فكان ضمير التذكير عائداً عليه ، سبحانه ، فالتذكير والتأنيث من صفات المخلوقات ، وليس من صفات الخالق ، فانتبه لكي لا تقع كما سَقَطَ مَن ذكر ذلك .

١ــ يوسف / ٢ .

٢ــ الشعراء / ١٩٥ .

ولبيان سقوطه أكثر ، نقول :

إنه يصحُّ أن تقول " الذات المقدسة " ، وتشير بها إلى ذات الباري عزَّ وجل، وتستعمل ضمير "هي" هنا العائد على الذات ، كما يستعمل ذلك أهل المعرفة ، والأخلاق ، والعقائد ، فراجع كتبهم ، وتفطن لذلك ، وتبين صدق ما نقول .

فلا يعني هذا أنَّ الذات المقدسة أنثى ، سبحان الله عمّا يصفون .

بل إنّ لفظ "الذات" في اللغةِ مؤنثة .

وبهذه النكتة نختم هذا الملحق اللغوي .

وآخرُ دَعْوانا أنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين .

محمد حسين الأنصاري

سدني / أستراليا

١٧ / ٠٣ / ٢٠١٥ م. / الثلاثاء / ٢٥ / ٠٥ (ج١) / ١٤٣٦ هج.

المصادر

القران العظيم

كتب التفاسير

- الإتقان في علوم القران / عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ، (ت٩١١هـ) .
- الجامع لأحكام القرآن ، والمبين لما تضمن من السنة وأحكام الفرقان ، المعروف بتفسير القرطبي / أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، (ت ٦٧١هـ .) .
- تفسيرابن كثير / للحافظ بن كثير (ت ٧٧٤ هـ.) .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المعروف بـ تفسير الطبري / محمد بن جرير الطبري ، (ت ٣١٠ هـ.) .

كتب الأحاديث ، والسُّنَّة

- الأصول من الكافي / لثقة الإسلام ، أبي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي ، رحمه الله . – ت : ٣٢٨ / ٣٢٩ هـ. – .
- الخصال / للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي – ت ٣٨١ هـ – .
- الشافي في الإمامة / للسيد الشريف المرتضى علي بن الحسين– ت ٤٣٦هـ–.

- المستدرك على الصحيحين المستدرك على الصحيحين المستدرك على الصحيحين المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المتوفى: ٤٠٥هـ) .
- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار / الشيخ محمد باقر بن الشيخ محمد تقي المجلسي الأول ، المعروف بالعلامة المجلسي ، أو بالمجلسي الثاني (١٠٣٧ – ١١١١ هـ).
- تحف العقول عن آل الرسول ﷺ/ للشيخ أبي محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرَّاني ، من علماء القرن الرابع الهجري .
- الدر المنثور / للوزير الكاتب أبي سعد منصور بن الحسين الآبي ، ت – ٤٢١هـ– .
- علل الشرائع / للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي – ت ٣٨١ هـ – .
- الفائق في غريب الحديث / لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨)
- كتاب من لا يحضره الفقيه / للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي – ت ٣٨١ هـ – .
- روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه / المولى محمد تقي المجلسي الاول– ت ١٠٧٠هـ –
- سنن أبي داود/ لسليمان بن الأشعث السجستاني ، (٢٠٢ – ٢٧٥ هـ).صحيح البخاري / لمحمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي (١٩٤ هـ – ٢٥٦ هـ)

- صحيح مسلم/ لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ هـ - ٢٦١ هـ) .
- غريب الحديث / لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، (ت : ٢٧٦هـ).
- كنز العمال / لعلاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري ، الشهير بالمتقي الهندي ، ت ٩٧٥هـ .
- مسند أحمد / أحمد بن حنبل ، إمام المذهب الحنبلي (١٦٤ – ٢٤١ هـ) .
- مسند فاطمة الزهراء / السيوطي جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الشافعي المصري (٨٤٩ ـ ٩١١ هـ) .

كتب السيرة والتاريخ

- السيرة النبوية عند أهل البيت عليهم السلام / للشيخ علي الكوراني
- الكامل في التاريخ / ابن الأثير عز الدين أبي الحسن الجزري الموصلي (٥٥٥ – ٦٣٠).
- تاريخ ابن كثير/ أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع القرشي المعروف بـ(ابن كثير) (٧٠٠ ـ ٧٧٤ هـ) .
- تاريخ الأمم والملوك أو تاريخ الرسل والملوك المعروف بـ تاريخ الطبري / محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ.
- تاريخ اليعقوبي /أحمد اليعقوبي هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي ت ٢٩٢ هـ .

- سرّ السلسلة العلوية / للشيخ أبي نصر سهل بن عبد الله البخاري ، كان حياً سنة ٣٤١ هـ.
- سيرة ابن إسحق / لأبي بكر محمد بن اسحاق بن يسار بن خيار المدني. (٨٥ – ١٥١ هـ).
- سيرة ابن هشام / ألفه ابن إسحاق ، ورواه أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري البصري المتوفي سنة (٢١٨هـ) .
- طبقات الكبير ، أو ما يسمى ب(الطبقات الكبرى) ، أو (طبقات ابن سعد) / محمد بن سعد بن منيع الزهري (٧٨٤ – ٨٤٥ هـ) .
- معجم الشعراء للمرزباني / أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني (ت: ٣٨٤هـ).
- معجم قبائل العرب / لعمر كحالة .
- مقدمة ابن خلدون / عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (٧٣٢ – ٨٠٨ هـ)

كتب معاجم اللغة

- العباب الزاخر واللباب الفاخر / رضي الدين الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر الصغاني الحنفي (المتوفى : ٦٥٠هـ) .
- تهذيب اللغة للأزهري / محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي ، أبو منصور (٢٨٢هـ ــ ٣٧٠هـ.)
- لسان العرب / لإبن منظور ،محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين

ابن منظور الأنصاري الرويفعى الأفريقى (٦٣٠ - ٧١١ هـ)
مجمع البحرين / للشيخ فخر الدين الطريحي ، ت ١٠٨٧ هـ .

- مقاييس اللغة / أحمد بن فارس بن زكريا ، أبو الحسين القزويني الرازي ، ت٣٩٥ هـ .

الكتب الأخر

- ألرسائل العملية لمختلف المراجع منها : كتاب منهاج الصالحين / المعاملات / أحكام النشوز والشقاق .
- أسرار البلاغة / أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (٤٠٠ - ٤٧١هـ).
- الأمالي / للسيد الشريف المرتضى علي بن الحسين - ت ٤٣٦هـ - .
- اللغة واختلاف الجنسين / أحمد مختار عمر / / ط١ / عالم الكتب / القاهرة / ١٩٩٦م .
- لذريعة إلى تصانيف الشيعة / الشيخ آغا بزرگ الطهراني رحمة الله عليه.
- الطرائف من مذاهب الطوائف / ابن طاووس الحلي علي بن موسى بن جعفر - ت٦٦٤هـ - .
- التأنيث في العربية ، رشيدة عبد الحميد اللّقاني / دار المعرفة الجامعية .
- اللغة والجنس د.عيسى برهومة / / ط١ / دار الشروق للنشر والتوزيع / عمان / ٢٠٠٢م.
- المذكر والمؤنث ، أبوالعباس محمد بن يزيد المبرد /تحقيق : رمضان عبدالتواب ، وصلاح الدين الهادي / وزارة الثقافة / القاهرة / ١٩٧٠م .

- بلاغات النساء / لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور ، (ت : ٢٨٠هـ).
- بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب / لمحمود شكري الآلوسي.
- سوق عكاظ تاريخه ونشأته / د. ناصر بن سعد الرشيد .
- سيدنا محمد / مناقب أجداده ، محمد رشيد رضا
- معجم البلدان / لياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي المشهور ب ياقوت الحمويالمتوفى: ٦٢٦هـ).
- الملل والنحل / محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، أبو الفتح ، ت ٥٤٨هـ .
- وقفة مع "النطـفـة"/ د.أحمد الحميدي .
- القانون في الطب / ابن سينا .
- خلق الإنسان بين الطب والقرآن / محمد علي البار .
- فقه اللغة ، وأسرار العربية / أبو منصور الثعالبي النيسابوري ،عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (٣٥٠ هـ - ٤٢٩ هـ) .
- الكتاب / سيبويه .
- شرح كافية ابن الحاجب / رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي النحوي المتوفى سنة ٦٨٦هـ .
- أسرار البلاغة / عبد القاهر الجرجاني .
- اللغة واختلاف الجنسين / الدكتور أحمد مختار عمر.
- حفريات لغوية في الذكورة والأنوثة / عيسى برهومة.

- موسوعة مؤلفي الإمامية / لمجمّع الفكر الإسلامي ، في قم المقدسة .منال الطالب في شرح طوال الغرائب / ابن الأثير مجد الدين المبارك بن محمد ، (٥٤٤هج ــ ٦٠٦ هج).
- دلائل الإمامة / للطبري محمد بن جرير بن رستم – ت٣١٠هـ – .
- الاحتجاج على أهل اللجاج / الطبرسي .
- كشف الغمّة / للشيخ أبي الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلّي (القرن السادس) .

الجرائد

"Sydney Morning Herald"

المواقع الألكترونية

- بحثٌ بعنوان : حول التذكير والتأنيث في اللغة / أ.د. أديب شحادة ، استاذ في جامعة هلنسكي / جماليا (موقع ألكتروني) / تاريخ النشر : ٠٤/ ٠٥/ ٢٠١٤ .

المحتويات

الاهداء : ---------- **٥**

تمهيد ، وتقديم ---------- **٩**

المقدمة ---------- **٢٣**

الفصل الأول

حال المرأة في أغلب العصور ---------- ٣١

الفصل الثاني

الصورة التي رسمها القران وبيّنها لِتكوّن الإنسان ، الذكر منه والأنثى ------- ٣٧

الفصل الثالث

الولادة الأولى الداخلية ---------- ٤٧

البرزخ بين الولادة الأولى والولادة الثانية ---------- ٤٩

الولادة الثانية ---------- ٥٠

النتيجة ---------- ٥١

الفصل الرابع

الزواج والأسرة ---------- ٥٥

لماذا أعطيَ الرجل المسؤولية على الأسرة ؟! ---------- ٥٩

الفصل الخامس

الطَّلاق : ---------- ٦٧

أسباب الطلاق ، نظريّاً ، وعمليّاً ---------- ٦٧

بعض قوانين الطلاق ---------- ٧٠

الفصل السادس

محطات الحياة ، وحفظ الحقوق ---------- ٧٥

ومن رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام ---------- ٧٨

الفصل السابع

المثال الحي بياناً وإنساناً ---------- ٨٧

فاطمةُ الزَّهْراءُ النّموذج ---------- ٨٨

الخطبة الأولى ---------- ٩٢

صورة المسلم الحقيقي في بيان الزهراء عليها السلام ---------- ١٠٨

الفصل الثامن

مثال الأنثى ---------- ١١٥

الخاتمة ---------- ١٢٣

لا سلطة للرجل على المرأة خارج نطاق الأسرة ---------- ١٢٧

وتنبيه مهمٌ ---------- ١٤٥

وأحسن من ذلك كلِّه : المعاشرة بالمعروف ---------- ١٤٧

ويجمعُها كلَّها حُسْنُ الخُلُق ، لِكلا الطرفين ---------- ١٥١

المرأة سرُّ نجاح الأسرة ، وعدم خرابها ---------- ١٥٤

الملحق تذكير اللغة وتأنيثها

في اللغات التي تفرّق بينهما كاللّغات السّاميّة، والمثال العربية ---------- ١٥٧

نقطة ارتكازها أنَّ المذكر هو الأصل ، والمؤنث الفرع ---------- ١٦٢

هل سبب التغليب المعنى ؟! ---------- ١٦٨

المؤنث الحقيقي ، والمؤنث اللفظي ---------- ١٦٨

وفي القرآن ---------- ١٧٤

إستثناء بعض المواضع عن التغليب ---------- ١٧٨

نتيجة البحث ---------- ١٨٣

التأنيث لا عيب فيه في اللغة ---------- ١٨٧

المصادر

كتب التفاسير ---------- ١٩٣
كتب الأحاديث ، والسُّنَّة ---------- ١٩٣
كتب السيرة والتاريخ ---------- ١٩٥
كتب معاجم اللغة ---------- ١٩٦
الكتب الأخر ---------- ١٩٧
الجرائد ---------- ١٩٩
المواقع الألكترونية ---------- ١٩٩
المحتويات ---------- ٢٠١